

الباب الثاني

الشاعر الأندلسي - أغراض الشعر الأندلسي - شعر الطبيعة

oboi.kandi.com

الفصل الأول

الشاعر الأندلسي وطرق التعليم

نهأت لأهل الأندلس أسباب الشعر ، وتوافرت لديهم دواعيه ؛ فطُبعوا على الشغف به ، وانبسطت ألسنتهم بقوله ، حتى قل أن تجد منهم من ألمَّ بطرف من الآداب ولم يقل شعراً .

وقد كان لطبيعة الأندلس الزاخرة بالمفاتيح أثر كبير في طبعهم على هذه الشيمة ، حتى لم تخل مدينة من مدنها من شاعر حاذق ، أو كاتب بليغ كما يقول ابن بسام في مقدمة ذخيرته .

ولم تقتصر الرغبة في الشعر والارتياض بنظمه على الرجال ، بل عدتهم إلى النساء ، فنبغ منهن شواعر يكدن يضاهين الشعراء عدداً ؛ وكان منهن طبقة من المحسنات البارعات ، كولاتة بنت المستكفي ، وتلميذتها مهجة القرطبية وحمدة بنت زياد المؤدب المعروفة بجنساء المغرب وحفصة بنت الحاج الركونية ، وعائشة بنت أحمد القرطبية ، ونزهة القلاعية الغرناطية ؛ .. وكن جميعاً موصوفات بالجمال والظرف ، إلا عائشة فقد استغنت بالفهم والأدب والفصاحة^(١) .

وقد كان للشعر حظوة لدى الملوك ، فنبغ منهم شعراء ، ودرجوا على استيثار الشعراء فكان الوزير نديم الملك وشاعره ومدير مملكته بأن . فاعتزَّ الشعراء بذلك ، وسمت مكانتهم ؛ وحفلت بهم دور الأمراء ودرَّ عليهم الرزق ، فنعمو ، وترفوا وطوا وعبثوا إلا أنهم كانوا أبدأ مهتدين بزوال النعمة ، لو شاية حاسد ، أو مكيدة مبغض ، أو خشية ملك أن يستقل الوزير بالأمر دونه ، كما اتفق لابن زيدون عند بني جهور ، ولابن الخطيب عند بني الأحمر ؛ .. وقد تحدث الوزير نفسه

(١) للبحث عن أخبار هؤلاء النساء انظر : نفح الطيب ، فصل : الأدبيات من نساء الأندلس

بالمملك ، فيظهر مَلِكُه على رغبته ، فيوقع به ، كما صنع المعتمد بن عباد بوزيره الشاعر ابن عمار .

إلا أن هذا لم يكن شأن جميع الشعراء ؛ فقد عجز فريق منهم عن التقرب من السلطان ، أو الوصول إلى الوزارة فظلوا ، على نباهتهم ، مغمورين خاملين .

ولم تخل حياة الشعراء من مضايقات ، وأعنفها ما كان يلقيه بعضهم من لفيف من الفقهاء ، كانت تدفعهم غيرتهم الدينية إلى أن يوقعوا ببعض من عرفوا بزيف أو مجون أو خلاعة ؛ كما جرى لابن هاني ، فقد نفاه أمير إشبيلية خوفاً من الفقهاء والعامة . لما بدا في شعره من آثار الخلاعة ، والمجاهرة بما يمس العقيدة .

على أن شعراء الأندلس وأدباءها ، على ما أوتوا من طبع صقلته الطبيعة ونمته المراتنة ، لم يكن لهم بد من ثقافة تعينهم وترفع طبعهم ، وغرضنا من هذا الفصل أن نتحدث عن طرق انتشار الثقافة في ذلك الصقع ، ومادة هذه الثقافة ، وعن الآثار الهامة التي كان الشعراء يتدارسونها ، لنضع أيدينا على ينباع ثقافة الشاعر .

* * *

كانت العربية لغة الأندلس الرسمية ، بها تجرى المكاتبات والمراسلات ، ورغم جنوح لغة التخاطب إلى العامية ، واستعمال بعض الفئات اللغة البربرية ، أو الرومانية ؛ . . وكان الخلفاء ورجال الدولة يقرؤون من يحسن العربية ، ويتنافسون هم أنفسهم في دراستها وإجادتها ، ويعملون على استجلاب الكتاب والشعراء إليهم ، ولم يكن التنافس بين الأمراء والحكام مقصوداً على الجانب السياسي ، بل كان يشمل الناحية الأدبية أيضاً ، وكان كل أمير يعمل على أن يكون في كنفه من الكتاب والشعراء ما يفوق ما لدى منافسه عدداً ومكانة ؛ بل كانت المنافسة في هذا الباب تدفع الواحد منهم أن يقتنص من لدى منافسه من أدباء أو شعراء كبار ، كما فعل المعتمد بن عباد ملك إشبيلية بآبى الأرقم وزير المعتمد بن صمادح صاحب المرية وكتبه الخاص ، وإن كان لم يوفق في مسعاه .

والمقرى في نفح الطيب يروى من الأخبار ما يدل بصراحة على مدى اهتمام الحكام بالكتاب النابهين المالكين زمام العربية ، المقتدرين عليها ، كما يدلنا على

احتقارهم لمن قلَّ نصيبه منها ؛ ومن هنا كان تعلم العربية والتمكن منها ضرورة لمن يريد أن يصل إلى ديوان الإنشاء .

ولما كان الشاعر يتولى في كثير من الأوقات وظيفة كتابية بوصفه وزيراً ، كان عليه أيضاً أن يكون واقفاً على أصول الإنشاء مجوداً للكتابة ، وإذا كان اهتمام الشعراء بالكتابة وفن إنشاء الرسائل ضرورة تقتضيها مهنتهم ككتاب في دواوين الإنشاء ، فقد كانت الكتابة أيضاً نتيجة لميل أدبي متأصل فيهم ، وقد رأينا كيف أدى العطف الذي أبداه الخلفاء والأمراء نحو الأدب والمتأدبين إلى كثرة الكتاب والشعراء وإلى ازدهار الأدب ولا سيما في زمن ملوك الطوائف ، ولكن هذا العطف لم يكن السبب الوحيد في هذا الازدهار بل إن أسلوب تعلم اللغة العربية والتثقف بالثقافة الأدبية العامة كان لهما أيضاً أثر كبير في نهضة الأدب وازدهاره في بلاد الأندلس .

فما هي طرق هذا التعليم ؟

لدينا كثير من الأخبار التي تشير إلى طرق التعليم والثقافة الأدبية في البلاد الأندلسية . ويكفي أن نجمع ما يكتبه بعض المترجمين والمؤرخين لحياة كاتب أو شاعر أو عالم عاش في الأندلس لنعلم ما كان يدرسه هذا الكاتب أو ذاك الشاعر ولتعلم الطريق التي كان يتبعها في شبابه وفي باقي أيام حياته .

ويحسن أن نضيف إلى هذه الأخبار ما كتبه ابن خلدون في مقدمته في الفصل الواحد والثلاثين عن « تعليم الولدان واختلاف أمصار المذاهب الإسلامية في طرقه » فهو فصل قيم أشار فيه إلى طرق التعليم في بلاد المغرب وفي بلاد الأندلس وقارن بين مختلف هذه الطرق . ويتبين من قراءة المقطع الخاص بالأندلسيين^(١) أنهم

(١) « . . . وأما أهل الأندلس فذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو وهذا هو الذي يراعونه في التعليم ، إلا أنه لما كان القرآن أصل ذلك وأسه ومنبع الدين والعلوم جعلوه أصلاً في التعليم فلا يقتصرون لذلك عليه فقط بل يخطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب ولا تختص عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشبيبة وقد شدا بعض الشيء في العربية والشعر والبصر بهما وبرز في الخط والكتاب وتعلق بأذيال العلم على الجملة » . ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٥٣٨ .

كانوا يعنون بتعليم العربية والشعر قبل العلوم الأخرى وإلى جانب القرآن الكريم أيضاً ليتفهموه ، على خلاف أهل المغرب والمشاركة الذين كانوا يبدعون بتعليم القرآن الكريم دون سائر العلوم ؛ وقد فضّل القاضي أبو بكر بن العربي (٤٦٨ - ٥٤٣ هـ) طريقة أهل الأندلس ونصحها للمشاركة « لأن الشعر - كما قال أبو بكر ابن العربي - ديوان العرب ويدعو على تقديمه وتعليم العربية في التعليم ضرورة فساد اللغة ثم ينتقل منه إلى الحساب فيتمرن فيه حتى يرى القوانين ثم ينتقل إلى درس القرآن فإنه يتييسر عليك بهذه المقدمة » (١).

فلاحظ أن الثقافة الشعرية واللغوية كانت أول ما يتعلمه الطالب في الأندلس ؛ فهنا إذن طريقة أندلسية في التعليم ، هي أن العلوم الإنسانية لها مكان خاص إلى جانب العلوم الدينية . نعم قد يكون أهل المغرب (أى أهل أقصى شمال إفريقيا) قد قصرُوا أحياناً همهم على تعلم القرآن ولم يرغبوا بأن يمزجوا مع تعلمه علماً آخر ، إلا أن المشاركة قد لجئوا أيضاً إلى مثل ما لجأ إليه أهل الأندلس واهتموا أيضاً بالعلوم الإنسانية ، ولا يهمننا كثيراً أن يبدعوا بالقرآن أو بالشعر واللغة ، فقد كانت هاتان الدراستان متصلتين ، ومن الصعب أن نفصل تعلم القرآن عن تعلم اللغة والشعر القديم لما بينهما من وشائج وثيقة ، وقد يكون من المستحسن لفهم القرآن أن نبدأ بدراسة اللغة ، كما شاء الأندلسيون وكما قال أبو بكر بن العربي ، فهي طريقة منطقية .

ويتساءل هنرى به رس (٢) عما إذا كان هذا المفهوم المنطقي للتعليم في الأندلس ليس ناتجاً عن تأثير العرق الإسباني الروماني الذي كان أحد العناصر الهامة التي كونت شخصية الأندلسي ، ثم يضيف قائلاً : إن الاهتمام ، في الدرجة الأولى ، كان منصرفاً في باقي البلاد الإسلامية إلى الأمور الدينية وقد تركت العلوم العقلية في درجة ثانوية ، على حين كان الأمر في إسبانيا على العكس ، إذ أخذت العلوم العقلية تحتل المكان الأول ، دون أن تهمل مع هذا العلوم الأخرى المشتقة من

(١) مقدمة ابن خلدون ، ص ٥٣٩ .

(٢) انظر كتابه السابق ص ٢٥ .

القرآن والحديث ، وعلى هذا فقد أخذ الأندلسي يفكر في الإنسان قبل الدين ، وأخذ التعليم يرمى إلى تنمية جميع مواهب هذا الإنسان بشكل متناسق .

هذه الملاحظات صائبة ، أما أن نستنتج منها أن المشاركة لم يهتموا بالإنسان مجرد أهمهم بدعوا بتدريس القرآن قبل الشعر واللغة ، فهذا أمر لا نوافق المستشرق عليه ، لأن القرآن الكريم دستور إنساني يطل على أمور الإنسان وحياته ويشرحها إلى جانب ما له من صفة دينية ، ولا نستطيع أن نقر أيضاً أن الأندلسيين قد تخلوا عن دراسة الأمور الدينية تماماً عندما بدعوا بدراسة الشعر والأدب . نعم لقد اهتم الأندلسيون بالإنسان ولكن هذا الاهتمام لم يمنعهم من الاشتغال بالقضايا الدينية ، وكذلك فعل المشاركة فقد بدعوا بالدين ولكن الدين لم ينسهم الاهتمام بالإنسان^(١) .

ومن دلائل النهضة الإنسانية في شعب ما ، أن يهتم هذا الشعب بدراسة الإنسانيات القديمة وآثارها . فالنهضة الإنسانية الفرنسية في القرن السادس عشر Humanisme تتمثل في اهتمام الشعراء والمفكرين بدراسات الإنسانيات الإغريقية والرومانية . ولولا هذا العود إلى آثار الإغريق وتفهم عبقريتهم وتقليدهم في الموضوعات والأساليب لما كانت النهضة الأدبية الفرنسية التي ظهرت منذ القرن السادس عشر وشعت في القرن السابع عشر .

وكذلك نحن ، فعودتنا إلى آثارنا القديمة ، إلى الشعر الجاهلي والأموي والعباسي ، إلى هذا الأدب الإنساني الواسع ، دليل على رغبتنا في المحافظة على إنسانيتنا الأدبية . والأدب الأندلسي ، كأدب إنساني ، أخذ يتطلع إلى هذا التراث القديم ويغذى فكره الإنساني بالشعر القديم وشعر صدر الإسلام وشعر المحدثين وآدابهم ، وإذا فهمنا الإنسانية بمعناها الفني هذا ، حق لنا أن نقول إن كل أديب عربي ، سواء أكان شرقياً أم أندلسياً ، كان يرمى إلى هذه النزعة الإنسانية في آثاره ودراساته وقراءاته إذا ما أراد لإنتاجه ولفنه النجاح .

(١) بل إن الأندلسيين لم يكونوا أقل حرصاً على علوم الدين من المشاركة إن لم يزيديا عليهم في هذا الباب ، ومصدق ذلك آثار علمائهم وفقهائهم ، بل إن الفقيه كان عندهم معظماً كما يقول المقرئ : « وسمه الفقيه عندهم جليلاً حتى إن المسلمين كانوا يسمون الأمير العظيم منهم الذي يريدون تنويعه بالفقيه ، وقد يقولون للكاتب والنحوي واللغوي : فقيه ، لأنها أرفع السمات » . نفح الطيب ج ١ ص ١٠٤ .

فالتعليم الذى يتلقاه الشاعر الأندلسى إذن لا يختلف فى شيء كبير عن التعليم الذى يتلقاه الشاعر المشرق ، وهو قبل كل شيء عودة إلى الآثار القديمة وحفظها وتفهمها وأحياناً تقليدها .

وقد أراد الأندلسى أن يكون تعلمه للشعر واللغة سابقاً لتعلم القرآن الكريم وسائراً معه ، كما أراد المشرق أن يسبق تعلم القرآن دراسة الشعر والأدب ، ولا أظن أن الأندلسى والمشرق استطاعا أن يجدا حدوداً فارقة بين هذا وذلك فى أثناء تفاعلهما العلوم والمعارف الأولى .

* * *

وقد كان التعليم الخاص الذى لا تشرف عليه الدولة منتشرًا فى كل مكان فى الأندلس ، فكننت ترى فى القرى الصغيرة ، كما فى المدن الكبيرة ، ما يشبه المدارس الابتدائية اليوم ، أما فى المراكز الهامة كقرطبة وإشبيلية وطليطلة وسرقسطة فكننت ترى حلقات التعليم على مختلف درجاته منتشرة فى المساجد . وكان هناك مدارس يشرف عليها أساتذة قديرون ، إلا أنه لم يكن فى الأندلس مدرسة جامعية على نمط المدرسة النظامية التى أسست ببغداد سنة ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م . هذا وقد خسرت قرطبة مركزها الثقافى بعد زوال الخلافة عنها ، وأصبحت المراكز الثقافية موزعة بين طوائف الملوك ، فكان لكل بلاط مركز من مراكز الثقافة .

وجل هذه الثقافة كانت ترمى لجعل الأندلسى أديباً ، شاعراً أو كاتباً . وإذا ما نظرنا إلى المؤلفات التى كان يتداولها الأندلسيون تحقق لنا هذا القول .

فما هى هذه المؤلفات التى كان يقرؤها الأندلسيون ؟ سيجيبنا عن هذا السؤال أبو بكر محمد بن خير ، الأديب الذى توفى سنة ٥٧٥ هـ وترك لنا مؤلفاً هاماً عنوانه « الفهرسة »^(١) يبين لنا فيه الدراسات والمؤلفات الشائعة فى عصره ، عصر ازدهار

(١) العنوان التام لهذا الكتاب هو : « فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة فى ضروب العلم وأنواع المعارف ، الشيخ الفقيه المقرئ المحدث المتقن أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة الأموى الإشبيلى » طبعة المستشرقين Codera, Ribera Tarrago فى مدينة سرقسطة سنة ١٨٩٣ ، ونشر فى مجموعة : Bibiotheaca arabica-hispana, T. IX-X .

الأدب في الأندلس ، ويمكن أن نعتبر هذه المؤلفات مقروءة في مختلف العصور الأندلسية مع بعض الزيادة والنقص .

فهرسة ابن خير :

لقد خصص مؤلف هذه الفهرسة مكاناً كبيراً لكُتب الحديث التي كان يتداولها الناس وكانت شائعة في عصره . وقد كان اهتمام الأندلسيين بالحديث كبيراً منذ بادئ أمرهم ، ولا أدل على ذلك من كثرة من ترحّل منهم إلى المشرق في طلب الحديث والوقوف على أمهات دواوينه وتلقيها عن جامعيها أو من رَووا عنهم . ولذلك ليس غريباً أن نرى ابن خير يهتم بها في فهرسته .

إلا أن القسم الذي خصصه لذكر المؤلفات الأدبية هو الذي يهتما وهو الذي يطلعنا على ثقافة الشاعر والأديب ويعبر عن ميولهما . ونلاحظ أن أحدث كتاب يذكره المؤلف في هذا القسم هو كتاب سقط الزند واللزوميات للمعري ، وهذان الكتابان لا يبعد أن يكونا قد وصلا إلى الأندلس في حياة المعري أو بعيد وفاته .

يمكننا أن نصنّف هذه الآثار الأدبية التي يذكرها ابن خير في عدة زمر :
زمرة المختارات والدواوين ، وزمرة طبقات الشعراء ، وزمرة كتب الأدب ، وزمرة كتب اللغة والنوادر ، وزمرة كتب النحو :

١ - فن كتب المختارات المعروفة بنشر إلى المعلقات مع شرح ابن النحاس النحوي المتوفى سنة ٣٣٧ هـ ، ثم إلى المفضليات ، والأصمعيات ، وكتاب الحماسة لأبي تمام ، وأشعار الهذليين ، والنقائض بين جرير والفرزدق ، وكتاب اليتيمة للشعالبي .

٢ - أما الدواوين الشائعة فهي : ديوان ذى الرّمة ، ويذكر المقرئ أن أبا بكر بن زهر كان يحفظ هذا الديوان ويقول إنه يحوى ثلث مفردات اللغة العربية ، ودواوين الأعشى وأبي تمام والمنتبي والصنوبري (المتوفى سنة ٣٣٤ هـ) ، وسقط الزند واللزوميات للمعري ، وديوان أبي العتاهية . وإلى جانب هذه الدواوين يجب أن نشير أيضاً إلى الدواوين التي جلبها أبو على القالي من الشرق عندما رحل

إلى الأندلس وهى تشمل معظم الشعراء الشرقيين المعروفين لعصره (وقد أشار إليها ابن خير) .

٣- أما كتب «طبقات الشعراء» التى تضم عادة مختاراً من القصائد مع نقد موجز ، فلم تكن عديدة ، ويذكر ابن خير منها كتاب الطبقات لابن قتيبة (المتوفى ٢٧٦ هـ) وكتاب الطبقات لابن النحاس (المتوفى ٣٣٧) .

٤- ومن كتب اللغة لا يذكر ابن خير سوى كتاب الميسر والقدهاح لابن قتيبة والكامل للمبرد .

٥- أما كتب النوادر فيذكر منها كتاب النوادر لعلى بن حزم اللحياني .
والنوادر لأبى زياد الكلابى والنوادر للحصرى .

٦- ويذكر من كتب الأدب كتاب زهر الآداب للحصرى وكتاب الآداب لابن المعتز .

* * *

لا شك أن قائمة ابن خير هذه بعيدة عن أن تكون تامة . فهى لا تشير إلا إلى عدد ضئيل من الكتب المعروفة والمقروءة فى عصره ، وإذا كانت جميع الكتب التى ضممتها مكتبة الحكم^(١) الفخمة ، قليلة عدد النسخ ، بعيدة عن أن تكون فى متناول عامة الناس ، فإننا نزعّم أن عدداً منها كان يتداوله الأدباء المقربون من البلاط الأموى ، وأن هذا التراث الأدبى ، عندما سقطت خلافة قرطبة لم يفقد بأجمعه ، وقد أدى التوزيع السياسى الذى عقب هذا السقوط توزيعاً أدبياً ، وتبعث ما بقى من مكتبة الحكم فى مكتبات ملوك الطوائف وفى المكتبات الخاصة لبعض متذوقى الأدب .

ويمكننا أن نعتقد بأن كتاب الأغاني الذى كان الحكم قد اشترى نسخة من نسخه الأولى كان يُقرأ فى حلقات بعض مدرسى الأدب . ألم يزعم بعض المؤرخين وهو عبد الوهاب المراكشى فى كتابه (المُعْجَب فى تلخيص تاريخ المغرب) أن

(١) بدأ حكمه سنة ٣٥٠ هـ .

ابن عبدون كان في شيخوخته يتلو الأغاني عن ظهر قلب ؟ ومهما يكن من أمر فإن الذي يبدو لنا هو أن كتاب الأغاني قد لاءم - وهذا شيء طبيعي - ذوق الأندلسيين وميلهم للشعر والموسيقى ، وعلى رغم قلة النسخ التي كانت قيد التداول فقد أثر تأثيراً كبيراً في الأوساط الأدبية وحلقات السمر المرفهة التي كانت منتشرة في الأندلس وهناك إشارات في نفح الطيب تفيد أن هذا الكتاب قد قلده بعض الأندلسيين ، فقد ألف يحيى الخدج أديب مرسية كتاباً على نمطه يدعى كتاب الأغاني الأندلسية ؛ وأن أبا الربيع أحد أمراء دولة الموحيدين وحاكم سجلماسة قد وضع له موجزاً .

وهناك مؤلفات أخرى هامة لدراسة اللغة العربية وآدابها لم يشر إليها ابن خير في « فهرسته » ولكن لدينا وثائق تؤيد انتشارها في الأندلس ، من هذه الوثائق رسالة ابن حزم والحكايات الكثيرة التي يرويها المقرئ في نفح الطيب . وإننا ذاكرون الآن أهم هذه المؤلفات وهي : النوادر لأبي علي القالي وأماليه وقد أملاهما في الأندلس نفسها ، الكتاب لسيبويه وقد اهتم به أهل الأندلس وتدارسوه وشرحه شرحاً مطولاً ابن المناصف^(١) ، وكذلك فصيح ثعلب كان له قارئوه من الأندلسيين ، أما كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت فلم يكن له قراء عديدون ومع هذا فقد كان ابن سيده يحفظه . وهناك كتاب نال حظوة كبيرة لدى الأندلسيين هو كتاب أبي عبيد القاسم بن سلام الهروي (وفاته سنة ٢٢٣ هـ) المسمى « الغريب المصنف » ، فقد قرأه أبو علي القالي وحفظه ابن سيده وقرظه ابن حزم فقال إنه أكمل كتاب لمعرفة اللغة العربية . وقد حدث مرة أن استعصت على الشاعر الأبييض قضية لغوية فأقسم أن يقيد نفسه ، كما فعل الفرزدق ، حتى يحفظ هذا الكتاب ، ولما رأته والدته على هذه الحال تساءلت عما إذا كان أصاب ابنها مس من الجنون .

وهناك كتاب آخر لابن قتيبة ذكره ابن خير في فهرسته وكان شائعاً أيضاً هو « أدب الكاتب »^(٢) وقد شرحه ابن السيد البطليوسي أحد نحاة بجاية في القرن

(١) كثير من الشروح التي وضعت لهذا الكتاب كانت أندلسية ، انظر : تاريخ آداب العرب للرافعي ج ٣ ص ٣٢٢ - ٣٣٤ .

(٢) لقي هذا الكتاب حظوة كبيرة عند الأندلسيين والمغاربة حتى قال ابن خلدون في مقدمته =

الحادى عشر الميلادى ، أما الكامل للمبرد فقد أقبل الأندلسيون على دراسته بكثير من الشغف والاهتمام ، وقد جاء به ابن أبى علاقة من الشرق فى زمن الحكيم المستنصر ، فنال شهرة كبيرة وطفق أدباء الأندلس يتدارسونه ويشرحونه ، وحفظه عدد كبير منهم ، نساء ورجالا . وقد حملت هذه الشهرة بعض اللغويين فى الأندلس أو من القادمين إليها على تقليده فألف صاعد اللغوى ، وهو نحوى شهير قدم الأندلس زمن طوائف الملوك ، كتاباً أسماه « كتاب الفصوص » هذا فيه حلو المبرد فى الكامل .

ومن البديهي أن ابن خیر لم يسجل فى فهرسته جميع المؤلفات الأدبية التى كانت تدرس فى عصره وفى العصر الذى سبقه مباشرة ، ولذا كانت الإشارات التى يذكرها ، فى هذا الصدد ، اللغويون وعلماء البلاغة والأدباء ، كانت ذات قيمة هامة ولا سيما إشارات ابن رشيقي صاحب كتاب العمدة .

أما أبو نواس فهو فى طليعة الشعراء الذين اهتم الأندلسيون بهم واستساغوا شعرهم وأحبوه . أما ابن الرومى فكانوا ينظرون إليه نظرهم لشاعر هجاء ، ويعجبون بوصفه للطبيعة ويحفظون له أشعاره فى تفضيل الرجس على الورد ، وقد نظم فى هذا المعنى كثير من شعراء الأندلس أشعاراً تعارض ابن الرومى .

وكذلك البحرى فقد كان محط إعجاب الأندلسيين ، وقد لجثوا إلى طريقتهم فى النظم ، حتى إن ابن بسام عندما وصف شعراء الأندلس لم يجد لمدهم غير تشبيههم بالبحرى فقال ما معناه :

« وكانت طريقتهم فى النظم مثالية فهى طريقة البحرى فى رفته وجزالته وعذوبته وشدته » .

أما المتنبي ، وقد ملأ الدنيا كما يقول ابن رشيقي ، فقد وصل تأثيره إلى المغرب الإسلامى وبخاصة الأندلس . وإذا كان لم يستطع أن يطمس أثر البحرى وابن المعتز فقد استطاع أن يشغل أذهان الناس وأضاف إلى قوة النظم فكرة

= ص ٥٥٣ : « وسعنا من شيوعنا فى مجالس التعليم أن أصول هذا الفن « الأدب » وأركانه أربعة دواوين ، وهى أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب النوادر لأبى على القالى البغدادى وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها » .

الفيلسوف ، حتى أصبح ديوانه موضع اهتمام ودراسة ، فشرحه الإفليلي المتوفى سنة ٤٤١ هـ وابن سيده المتوفى سنة ٤٥٨ هـ . وذكر ابن بسام عدداً من أشعاره التي نسج على منوالها كثير من شعراء الأندلس . ويظهر أن المعتمد هو أول ملك من ملوك الطوائف اهتم اهتماماً كبيراً بالمتنبي ، حتى إن إعجابه بشاعرنا العربي الكبير قد أزعج الشعراء المحيطين به .

ولم تقف إسبانيا المسلمة عند المتنبي فقط في إعجابها ، بل هناك شعراء شريقون آخرون قد جلبوا انتباهها ، فابن خفاجة الذي يُعدُّ شاعر الطبيعة الأول في الأندلس والذي لم يكن سوى مقلِّد عبقرى ، يعترف بأنه مدين في أكثر وحيه إلى شعراء مشاركة كالشريف الرضى الموسوى (وفاته ٤٠٤ هـ) وعبد المحسن الصورى (وفاته ٤١٩ هـ) ^(١) ومهيار الديلمي (وفاته ٤٢٨ هـ) . ولا يصعب علينا أن نبين ما أخذه عن البحترى والصنوبرى ^(٢) من معان وأخيلة تتعلق بوصف الطبيعة ، حتى إنه كان يلقب بصنوبرى الأندلس .

ويدهشنا ألا يذكر ابن خبير للمعري غير سقط الزند واللزوميات بينما نلاحظ أن رسالة من رسائل أبى العلاء المسماة « الصاهل والشاجح » قد قلدها أحد أولاد الأندلسى ابن عبد الغفور تحت عنوان « الساجعة » وهذا الأمر ذكره ابن خاقان فى المطمح والمقرى فى نفح الطيب ، ونص هذه الرسالة لا يوجد إلا فى الذخيرة . ولهذا نستبعد ألا يكون هناك مؤلفات أخرى لأبى العلاء قد عرفها الأندلس ^(٣) .

• • •

(١) يظهر أن ديوان هذا الشاعر قد ضاع ، انظر ابن خلكان .

(٢) مقطوعات الصنوبرى المتفرقة جمعها محمد راغب الطباخ تحت عنوان الروضيات ، حلب ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م .

(٣) يشير المؤرخون إلى أن أباً عامر بن شهيد (٣٨٢ - ٤٢٦ هـ) كان مولماً بأثار المعري حاذياً حذوه . ويقال إنه عارض (رسالة الغفران) للمعري برسائه (التوايع والزوايع) التى أورد ابن بسام فى الذخيرة أقساماً كثيرة منها . وقد أفردنا بالنشر بطرس البستاني عام ١٩٥١ فى بيروت ، معتمداً على ما جاء منها فى الذخيرة . ويزعم المستشرق بروكلان أنها صفت قبل رسالة الغفران بعشرين سنة ، إلا أن بطرس البستاني يرى أنها لم تتقدم رسالة الغفران بأكثر من تسع سنوات ، وليس لدينا ما يثبت أن أباً العلاء قد اطلع عليها .

هذه هي أهم المؤلفات التي كان يدرسها الشاعر والأديب ورجل الفكر في الأندلس ، وكان من جراء تأثير اختلاط الأندلسيين بالبيئات الأجنبية المحيطة بهم أن انتقلت إليهم كثير من النزعات الإنسانية فجعلت لهم تفكيراً خاصاً تميز بنزعة إنسانية جديدة ظهرت فيهم تحت تأثير اطلاعهم على الآثار اليونانية التي انتقلت إليهم من الشرق أحياناً وعن طريق الغرب والإسبانيين أحياناً آخر . فاثلتف حبهم للعلم مع حبهم للآداب ، وأرهفت الفنون ذوقهم الشعري ، وأخذت الصفات الحربية تضعف فيهم وشرعوا ينظرون إليها كشئء يمكن إهماله بجانب المشاغل الفكرية . فلا نعجب بعد هذا إذا رأينا الشاعر الأندلسي يحبي الفكرة القديمة ويطبعها بطابع إنساني كنتيجة للأثر المسيحي الروماني الذي أحاط به . وسرى أن الأدب الأندلسي قد استطاع أن يتلون بهذا اللون الجديد دون أن تمحى تقاليده الشرقية .

الفصل الثانى

طبقات الشعراء ، حياة الشاعر وشروطه الاجتماعية

إن الكتب التى ذكرناها بينت لنا مدى ثقافة الشاعر الأندلسى بشكل عام ، وبينت لنا أيضاً لون هذه الثقافة . وقد رأينا كيف كان الشعر الدعامة الأولى لهذه الثقافة يتدارسونه مع القرآن الكريم إن لم نقل قبله ، وكيف كان الناس فى الأندلس مطبوعين على قول الشعر مشغوفين به ، فهل كان الشعر ملكاً لطبقة خاصة من الناس ؟

إننا إذا ألقينا نظرة على الشعب الأندلسى رأينا أن الشعر قد استطاع التغلغل فى مختلف طبقاته ، فلم يقتصر على الأمراء وعلية القوم الذين أخذوا يدرسونه وينشدونه منذ شبابهم مستفيدين من ثقافتهم التى جاءتهم عن طريق التعليم ، بل كنا نرى أناساً من عامة الشعب لا يعرفون القراءة والكتابة محرومين من الثقافة ينظمون الشعر ويتذوقونه . ولعل هؤلاء قد اكتسبوا هذه القدرة على النظم بعد أن تقدمت بهم السن ، وبعد أن اختلفوا إلى بعض الحلقات العلمية واستمعوا بدافع ميل شخصى عفوى إلى ما يقوله المتأدبون والعلماء فى دروسهم فما فيهم ذوقهم الفطرى . فقد كان المدرسون يقبلون فى حلقاتهم أى شخص كان على أن يكون لديه الاستعداد الفطرى لتذوق ما يسمع ، ومن هؤلاء الشعراء الأُميين ابن لبّال الأُمى أستاذ ابن عبدون .

ويمكننا أن نحشر العميان فى زمرة الشعراء الذين لا يعرفون القراءة والكتابة . وكثيرون فى الأندلس الشعراء الذين يحملون لقب الأعمى أو الضربير أو المكفوف . ويشير الصفدى فى كتابه (نكت الهميان) إلى عدد كبير منهم ، ممن امتازوا بالعلم والأدب ، كالتحوى ابن سيده الذى عاش فى مرسية ، والشاعر الوشاح الأعمى التطيلي الذى عاش فى تطيلة .

وهناك شعراء من أصل متواضع ، أو من أرباب المهن ، كانوا على جانب بسيط من الثقافة ، ويحدثنا ابن عمار شاعر المعتمد ، وهو من أسرة متواضعة ، عن الفائدة التي يمكن أن يجنيها المرء من مخالطته هذه الجماعات الكادحة التي تسعى جاهدة في سبيل نيل قوتها اليومي ، وقد كان ابن عمار قبل أن يصبح شاعر المعتمد يخالط هذه الأوساط باحثاً فيها عن موضوعاته الأدبية مدرّكاً ما يمكن أن يستفيده الشاعر من صور جديدة وتشابه مستمدة من واقع الحياة . وابن عمار هو الذي اكتشف الشاعر ابن جامع وقد كان صباًغاً في مدينة بطليوس . أما أبو تمام غالب بن رباح وهو حجّام في قلعة الرباح فقد اشتهر بشعره الواقعي ونظم شعراً يصف الجروح والقروح وافتراس الطيور الجارحة لأحشاء القتلى وصفاً واقعياً تشمئز منه النفس أحياناً .

ومن بين الشعراء الذين انبثقوا في طبقات متواضعة ، يمكننا أن نشير إلى هؤلاء الذين كانوا يعيشون في الحقول وكانت مهنتهم الزراعة ، ولا شك أن نشاطهم الأدبي كان ذا قيمة . فالحياة في الحقول ليست دائماً عملاً مرهقاً ، إنها ترك فسحات للأحلام ، ولا نكون مغالين إذا قلنا إن الشعر الشخصي هو ما كان منبعثاً عن أولئك الذين عرفوا الطبيعة وتحسسوا بجمالها . والميزة التي امتاز بها بعض شعراء الأندلس الذين تأثروا بالطبيعة كابن خفاجة مثلاً هي أنهم لم ينظروا إليها كشيء خارج عن كيانهم بل وصفوها من خلال عواطفهم وأشركوها إحساسهم فجسموها وشخصّوها ، وهذا ما فطن إليه الرومانتيكيون بعدهم ، ولاشك أن هذا الوصف العاطفي للطبيعة الأندلسية قليل إلى جانب الوصف المادي إلا أنه موجود كما سترى ويجب أن يشار إليه عندما يبحث عن خصائص شعر الطبيعة في الأندلس . ونلاحظ أن جمال الطبيعة وقساوتها قد انتقلت إلى أشعار هؤلاء النفر من الشعراء الذين مارسوا حياة الحقل ، وهم هؤلاء الذين استطاعوا بعد أن انتقلوا إلى حياة المدن الناعمة أن يعبروا عن أفكار قوية بصور جديدة ملونة ، وهم الذين منحوا الشعر الأندلسي هذا اللون الحقل ، لون الشعر الرعوي^(١) القريب

(١) هذا اللون من الشعر يسمى بالفرنسية La poésie bucolique

من أشعار بعض اليونانيين والرومانين . وهو شعر يصف الطبيعة والحياة الحقلية في رقة ظاهرة تذكرنا برقة أشعار الشاعر الغنائي اليوناني Anacréon^(١) وهو ينشد نعيم الأرض وسعادة الطبيعة في كثير من الانطلاق والجمال . وعديدون الشعراء الأندلسيون الذين تفتحت عبقريتهم في أحضان الطبيعة ، فابن عمار نشأ في الريف وقال فيه أول شعره ، وابن شرف أحس بشاعريته وهو في قرينته برجة ، ومنهم من غادر قرينته إلى المدينة ولكنه لم يستطع الابتعاد عنها نهائياً فعاوده الحنين إليها وفضل أن يقضي آخر أيامه فيها كما فعل الشاعر ابن مقالة الذي يتحدث عنه عبد الواحد المراكشي في تاريخه عن الموحدين .

وكذلك كنا نلمس ذوقاً شعرياً وشغفاً كبيراً بالنظم في الطبقات العالية والأرستقراطية . فهذا هو ذا المظفر بن المنصور كان مشغوفاً بالأشعار التي تصف الأزهار والمسماة بالتّوريات ، وكان يقترح على الشعراء أن ينظموا في وصف الحدائق والحقول كما يقول المقرئ . ولم تكن السياسة والحروب لتشغل الأندلسيين عن الاهتمام بالأدب ، فهذا نحن أولاء نرى المستظهر بالله ، وكانت خلافته زمن الفتنة (توفي سنة ٤١٤ هـ) ، يعقد مجالس أدبية يشترك فيها أدباء مشهود لهم بالمقدرة كأبي عامر بن شهيد وأبي محمد بن حزم على رغم اضطراب الأمور من جراء العراك الشديد القائم ضد البرابرة .

وكذلك المعتضد فقد قرض الشعر ، ويحدثنا ابن بسام في ذخيرته أن قصائده قد جمعت في ديوان ، أما ابنه المعتمد ، فقد كان صورة صادقة للشاعر الأندلسي ، وفي عهده أصبحت إشبيلية قطب الحركة الأدبية والشعرية ، واستطاع بنو عباد أن يجمعوا في دولتهم الزعامة السياسية والزعامة الأدبية . وكذلك بلاط المرية أصبح ملتقى الشعراء في عهد المعتصم بن صمادح . أما بقية ملوك الطوائف فقد كان حبيهم للشعر والأدب ظاهرة من ظواهر التباهي والتفاخر ، وأكثر من أن يكون حباً خالصاً وذوقاً شعرياً مجرداً ، ولهذا لا نعجب أن نرى المظفر ملك بطليوس يقول إنه لا يقبل في بلاطه شاعراً يقل عن المتنبي أو المعري ، وكان من جراء ذلك أن ابتعد

(١) عاش هذا الشاعر في القرن الخامس قبل الميلاد .

الشعراء عنه ، أما الذين جاعوه فقد دفعوا الثمن وأراقوا ماء وجههم في مدحه والتلق له .

أما في غرناطة ، فيظهر أن الشعراء ، في بادئ أمرهم ، قد عاشوا في خوف دائم لا سيما في عهد الأمير باديس بن جبوس . وإذا كان هذا الأمير قد أكرم الأدباء كغنائم الخزوى فذلك أنه كان يعتبرهم كفقهاء ، وقد أبعد كل من كان حراً في رأيه . ولكن الأمراء الذين خلفوا باديس كانوا على عكس ذلك ، فقد أكرموا الشعراء والأدباء الذين كانوا يتوافدون على غرناطة ، وكان من بينهم من ينظم شعراً ، حتى إن الأمراء البرابرة ، كعلي بن حمود الناصر ، كان يلذ لهم أن يسمعوا الشعر ويحضوا الشعراء على نظمهم . ونحن نعلم ما تمتعت به غرناطة في أيامها الأخيرة من شهرة عظيمة وكيف كانت آخر نواة لتي فيها الشعر رواجاً وموتعة ورنخاء .

ولنقل إن الاهتمام بالشعر والأدب كان على نفس الشدة في بقية المراكز التي قام بها بلاط لطائفة من طوائف الملوك ، وإذا كان أمراء سرقسطة وطليطلة قد امتازوا بحبهم للفلك وللعلوم الرياضية فما نحسب أنهم ضنوا على الأدباء أو قصرُوا في تشجيع الشعر والعطف على الشعراء .

أفلا يدهشنا إذاً هذا الرواج للشعر في مختلف الطبقات الأندلسية ولا سيما في زمن ملوك الطوائف ؟ إن مثل هذا الرواج قد لا نجده في الشرق الإسلامي . فقد كان الشعر في الشرق ، على الغالب ، إنتاجاً أرستقراطياً ، أما في الأندلس فهو ظاهرة وطنية ساعدتها ظروف المحيط السياسية والاجتماعية والطبيعية ، حتى أصبح على فم كل إنسان . فهو في نظر العامل والفلاح الأندلسي أنشودة تنسيه أتعابه ، وهو في نظر الوزير والأمير هرب من مشاغل السياسة والإدارة ، وهو في نظر الشاعر الرسمي أو شاعر البلاط سبب للرزق ، ولكن على رغم هذا الطمع المادى الذى أبداه شاعر البلاط فإنه ما كان لينسى النواحي الفنية ، بل لعله كان يجبر الفن على الانطلاق لينال إعجاب الممدوح . ويمكننا أن نقول إن الشعر كان في نظر الأندلسي على الإطلاق رمزاً للفخر ، وما كان الأمير ليجد في ممارسته

غضاضة أو نقصاً بل على العكس فخاراً ومجداً . ولهذا فالأندلسي رغب بالشعر للشعر ، لهذا التناسق الموسيقي الذي تختلج به الشفاه والقلوب ، ولأنه كلام مجنح وموسيقى قبل أن يكون ألفاظاً ، فهم يغنونه ولا يلقونه إلقاء .

والآن كيف يمكننا أن نختصر حياة الشاعر الأندلسي الذي نراه على الغالب منبعثاً من أوساط متواضعة ؟ وما هي الطريق التي يجب عليه أن يشقها ؟ لاشك أننا نبعد في أثناء الجواب عن هذا السؤال الشعراء والأمرء الذين لهم نمط خاص في حياتهم وتربيتهم والذين كان شعرهم وصفاً لهذه الحياة مع اندفاعات خاصة رسمت إنسانيتهم وأشواقهم التي لم يستطيعوا التخلي عنها أو تناسيها .

فالشاعر الأندلسي ، وهو على الغالب من منبت متواضع ، يمكن أن تُختصر حياته بالكلمات الآتية : دراسة في قرية متواضعة ثم في مدينة كبيرة ، بعدئذ حياة هائمة قريبة من التشرذ إلى أن يقترب من محسن أو أمير فيواتيه الحظ وينعم بالجاه والمكانة والمال وينغمس في حمأة الدسائس .

ونرى أن أكثر الشعراء قد نشأوا في الأرياف وقد لقنهم بعض النحويين النظامين علوم العربية والشعر ثم يقصدون المدينة . والحكايات في هذا الصدد كثيرة مبعثرة في المقرئ وغيره من كتب الأدب ، فابن عمار عندما غادر قريته كان لا يملك إلا بغلته التي كان يمتطيها ، ومع هذا فقد أصبح وزيراً للمعتمد .

والشاعر ابن فضل بن شرف عندما قدم على بلاط المعتمد بن صمادح في المرية كان في ثياب رثة أثارت ضحك رجال البلاط حتى تساءلوا من أية صحراء هو قادم .

وهكذا فقد كان على الشاعر أن يجاهد للبحث عن المجد والمادة ، لا سيما إذا كان من طبقة متواضعة . ولكن حياة المجد التي كانت تنتظر الشاعر الناجح هي التي كانت تحثه على العمل ومواصلة السعي ، وهو برغم سعيه ما كان ليخفى المصاعب التي تعترض سبيله ، فالشعراء كثيرون والنقاد متهيثون ومن الصعب لمن لا يتحلى بالعبقرية والثبات أن يفتزع له طريقاً في هذا المضمار الوعر .

وكانت حياة الشعراء حياة تنقل ، فالشاعر يحمل إنتاجه الشعري ويطرق أبواب

الأغنياء والأمراء طلباً للجائزة وسعيًا وراء المادة ، حتى ولو استقر به المقام عند أمير من الأمراء فقد لا يكون هذا المقام طويلاً ، ويضطر الشاعر ، وقد شعر أن ممدوحه قد ملّ معانيه وشعره ، أن يغادر بلاط هذا الممدوح إلى بلاط ممدوح آخر ، وهو يظهر تدمره وشكواه مما لاقاه ويتألم من ممدوحه الذي لم يستطع إدراك مزاياه . وهذا التنقل سراه شائعاً أيضاً عند شعراء التروبادور .

وشكوى الشعراء من سوء الطالع ومن سوء الناس وقلة فهمهم لهم ازدادت في زمن المرابطين . حتى رأينا ابن بقتى يتهم اتهاماً قوياً المجتمع الذي لم يعد يقدر العبقریات ورجال الشعر ، ولا شك أن ابن بقتى قد نظر هذه النظرة الشديدة لمجتمعهم عندما شعر ببعض الإخفاق ، وكان إخفاقه طعنة آلمت شعوره وأثارت سخطه حتى وصف أفراد مجتمعه بالجهلة والقساء . ومهما يكن من أمر فحياة الشعراء لم تكن دائماً حياة ضاحكة . بل هي كحياة أولئك التروبادور الذين كان عليهم أن ينشدوا ليعيشوا .

ولكن مهما انصفت حياة الشاعر بالتنقل والنشرد ، فقد كان يعرف كيف يخضع نفسه لشروط معينة ولطاعة مذعنة عندما يصل إلى مدينة يحكم فيها أمير يرغب في الدخول تحت زعامته . وهكذا يطرق باب قصر الأمير ويخصص له صاحب الإنزال (وهو موظف مخصص لإسكان الشعراء واستقبال ضيوف الأمير) مكاناً في ملحقات القصر ، وأحياناً في القصر ذاته عندما ينال الخطوة الثالثة التي تستدعي هذا الإكرام . وهنا تبدأ حياة الشاعر مرتبطة بحياة الأمير ، لا يترك مناسبة تمر دون أن يوجه له مديحاً يعدد فيه مناقبه وشجاعته وكرمته على طريقة الشعراء المشاركة مردداً معاني المدح التقليدي .

وحياة شاعر البلاط في الأندلس لا تختلف في شيء كثير عن حياة شاعر البلاط في الشرق ، ولا بد للشاعر بعد أن يدخل القصر ، أن يمثل بين يدي الأمير ليسمعه بعض شعره ، ويكون ذلك بمثابة امتحان له فإذا ما لاقى الشاعر استحساناً تمكن من البقاء . ومن الشعراء من استطاعوا أن ينالوا مرتبة عظيمة ويتقبلوا في المناصب العالية وتغدق عليهم الأموال بعد أن أخضعوا شيطانهم للمدح والاستجداء .

فالشاعر الرسمي عبدٌ لصنعتة وسيده ، وكلما خضع لدواعي مهنته كشاعر بلاط تضاءلت شخصيته ، ولكن هناك شعراء استطاعوا أن يلائموا بين مهنتهم ووحيمهم الشخصي ، ومنهم من استطاعوا أحياناً أن يفروا من دواعي المهنة ويتركوا لطبعهم فرصة التحليق في أجواء الخيال والتعبير عن هواجس النفس دون قيد أو إكراه .

ولا ننتظر من شاعر البلاط أن يقدم لنا صوراً جديدة أو شعراً ينحدر إلى أعماق القلوب ما دام خاضعاً لسلطان المهنة ودواعيها ، بل لنبحث عنها في الشاعر الشخصي الذاتي الذي لم يُخضع شيطانه للمال بل جعله طوع قلبه وعاطفته وهواجسه ، ويمكننا أن نختم هذا البحث قائلين إن الشاعر الأندلسي في صفتيه الرسمية والذاتية قد استطاع أن يرضى بمدوحه ونفسه وفنه .

الفصل الثالث

الآثار الأدبية الأولى وذكر لأشهر الأدباء والشعراء

ما إن تم للعرب فتح الأندلس حتى أخذت القبائل العربية تتقاطر عليها من أنحاء المشرق ، ولا سيما ديار الشام ، مستوطنة . وكان بين هؤلاء النازحين من عرف بالشعر وارتاض بنظمه ، إلا أن من الطبيعي ألا نعتبر ما أثر عن هؤلاء الطائرين شعراً أندلسياً يحمل طابع الأندلس الخاص وملامح الشخصية الأندلسية المتميزة ؛ إذ لا يعدو هؤلاء أن يكونوا جيلاً مشرقياً تظهر في آثارهم مسحة المشرق ، ولا بد من تصرف حقبة من الزمن غير قصيرة لينشأ جيل أندلسي طبعه الجو الجديد بطابعه وظهرت في تكوينه آثار طبيعة الأندلس ومناخها على نحو مستقل .

على أن هذه الأجذام العربية النازحة ، وما انحدر منها من سلالة أندلسية كانوا ، في واقع الأمر ، أول تاريخ الأدب في الأندلس « وقلما تجد في الأندلسيين شاعراً مفلقاً أو كاتباً بليغاً أو عالماً ضليعاً إلا ونسبه في قبيلة من تلك القبائل العربية »^(١) .

هذا ، وقد حفظت لنا كتب الأدب طائفة مما أثر من شعر هؤلاء النازحين ، وفي طليعة هؤلاء عبد الرحمن الداخل الذي وطد الملك لبنى مروان في الأندلس ، فالمقرى يذكر له خطباً ورسائل تشبه في أسلوبها خطب الأمويين ورسائلهم في آخر أيام دولتهم بالمشرق ، ويذكر له فوق ذلك شعراً يتمتع بركة الشعر الأموي وجزالته . ومنه ما بعث به إلى أخت له بالشام يصف فيه شوقه إليها وحنينه إلى بلده ووطنه الذي فارقه موجد القلب فاراً من سيوف العباسيين ، قال :

أيها الراكبُ الميممُ أَرْضِي إقْرِ بعضَ السلامِ عني لبعضِ
إن جسمي كما تراه بأرضٍ وفؤادي ومالكه بأرضِ

(١) مصطفى صادق الرافعي - تاريخ آداب العرب ٣/ ٢٦٨ .

قُدِّرَ الْبَيْنُ بَيْنَنَا فَافْتَرَقْنَا وَطَوَى الْبَيْنُ عَنْ جَفَوْنِي غَمَضِي
 قَدْ قَضَى اللَّهُ بِالْفِرَاقِ عَلَيْنَا فَعَسَى بِاجْتِمَاعِنَا سَوْفَ يَقْضِي^(١)

ومنه أيضاً هذه الأبيات التي تفيض بالحنين والشوق والتي قالها في نخلة فريدة
 في حديقة قصره بالرصافة الذي بناه على نسق رصافة الشام ، فهاجت شجته وأثارت
 كوامن عاطفته :

تَبَدَّتْ لَنَا وَسَطُ الرُّصَافَةِ نَخْلَةٌ تَنَاءَتْ بِأَرْضِ الْغَرْبِ عَنْ بَلَدِ النَّخْلِ
 فَقُلْتُ : شَبِيهِي فِي التَّغْرِيبِ وَالنَّوَى وَطُولِ التَّنَائِي عَنْ بَنِيَّ وَعَنْ أَهْلِي
 نَشَأَتْ بِأَرْضٍ أَنْتِ فِيهَا غَرِيبَةٌ فَمِثْلُكِ فِي الْإِقْصَاءِ وَالْمُنْتَأَى مِثْلِي
 سَقَتَكَ غَوَادِي الْمُزْنِ فِي الْمُنْتَأَى الَّذِي

يَصِحُّ وَيَسْتَمِرُّ الْمَسَاكِينُ بِالْوَيْلِ^(٢)

وقد كان ابن عمه الأمير عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي من الذين
 فروا من الشام خوفاً من المسوودة ، وقد مضى إلى الأندلس فولاه عبدالرحمن على
 إشبيلية ، وكان يقول الشعر ، وقد روي له أيضاً أبياتاً قالها في نخلة فريدة رآها
 بحديقة بإشبيلية فتذكر وطنه وحن إلى أهله ، قال :

يَا نَخْلُ أَنْتِ فَرِيدَةٌ مِثْلِي فِي الْأَرْضِ نَائِيَةٌ عَنِ الْأَهْلِ
 تَبْكِي ، وَهَلْ تَبْكِي مُكَمَّمَةٌ عَجَمَاءُ لَمْ تُجَبِّلْ عَلَى جَبَلِي
 وَلَوْ أَنَّهَا عَقَلَتْ إِذَا لَبَكَّتْ مَاءَ الْفُرَاتِ وَمَنْبِتَ النَّخْلِ
 لَكُنَّهَا حُرِمَتْ وَأَخْرَجَنِي بُغْضِي بَنِي الْعَبَّاسِ عَنْ أَهْلِي^(٣)

(٢) المرقى ٧١٦/٢ .

(١) المرقى ٧٠٧/٢ و ٧١٦ .

(٣) المرقى ٧١٨/٢ .

وهذه الأبيات تنسب أيضاً لعبد الرحمن ، وهي كما ترى تنم عن قوة ورقة كانتا طابع الشعر الأندلسي في جميع أطواره .

وقد أصبحت قرطبة في زمن عبد الرحمن ومن عقبه من الأمراء مركز الحركة العلمية والأدبية في الأندلس ، فتوافد إليها الكثيرون من المشرق يعرضون لإنتاجهم وشعرهم . وحدث اتصال أدبي ، شرق غربي ؛ ولكن قرطبة كانت ترسم خطى بغداد في نهضتها ، وكان المشرق قبلة الأندلس ، وقد رأينا كيف كان الأندلسيون يعيشون على الثقافة الشرقية فلا يكاد يعرف كتاب في المشرق حتى يطلب إلى المغرب^(١) ، ورأينا كيف كان الأندلسيون يرتحلون إلى المشرق في طلب العلم والأدب والرواية ثم يعودون فينشرون هذا العلم والأدب في الأندلس .

وهكذا كان الأدب حتى أواخر الدور الأموي وسقوط الخلافة أدباً وافداً على الأندلس يتذوقه الأندلسيون ويقلدونه ، وكانت خطبهم ورسائلهم لا تختلف كثيراً عن خطب المشرق ورسائله أواخر العصر الأموي وصدر العصر العباسي . ولم يكن هناك جيدة في أشعارهم إلا ما تقتضيه طبيعة إقليمهم من وصف للرياض والبساتين والمنشآت التي استحدثها ملوكهم ، وبقيت أكثر الأغراض الشعرية التقليدية تحتذى نماذج مشرقية ، وكثرت فيما بعد الألقاب التي تشير إلى أن هم شعراء الأندلس أن يجاروا الفحول من شعراء المشرق .

زرياب والنهضة الغنائية :

يستدل من الأخبار التي يرويها المقرئ أن عبد الرحمن الداخل قد استقدم إلى الأندلس البحاريات المحسنات للغناء ، منهن "فضل المدنيّة"^(٢) ، وبذلك يكون أول من شجع رحلة الغناء إلى الأندلس .

(١) انظر ص ٦٩ - ٧٣ من هذا الكتاب .

(٢) نشأت وتعلت ببغداد ثم درجت من هناك إلى المدينة المنورة فارتقى غناؤها ثم اشترت لعبد الرحمن مع صاحبها علم المدينة وصواحب غيرها ، وجرى بهن إلى الأندلس فأُزِلن بقصر الأمير في دار تعرف بدار المدنيات نسبة إليهن ، وكان عبد الرحمن يؤثرهن بلحوة غنائهن ورقة أدهن . المقرئ ٧٥٨/٢ .

ويُعدُّ زرياب المغني رأس النهضة الغنائية الأندلسية، وهو أثر من آثار الحضارة الشرقية التي وفدت إلى الأندلس عن طريق من جاءها من المشاركة . وزرياب هذا ظهر في بغداد وأخذ الغناء عن إسحق الموصلي حتى برع فيه ، وقد رأى إسحق أن يسمع الرشيد غناؤه فسمعه وأعجب به وأوصى أن يعتنى بشأنه ، فما كان من إسحق إلا أن لحقته غيرة منه وخاف من منافسته فأوعز إليه أن يترك العراق ، وفي ذلك يقول المقرئ :

« فسقط في يد إسحق وهاج به من داء الحسد ما غلب على صبره فخلا بزرياب وقال يا عليّ إن الحسد أقدم الأدوية وأدواها ، والدنيا فتانة ، والشركة في الصناعة عداوة ولا حيلة في حسمها ، وقد مكرت بي فيما انطويت عليه من إجادتك وعلوّ طبقتك ، وقصدت منفعتك ، فإذا أنا أتيت نفسي من مأمّنها بإدنائك ، وعن قليل تسقط منزلتي وترتقي أنت فوقى ، وهذا ما لا أصاحبك عليه ولو أنك ولدى ، ولولا رعيي لذمة تربيتك لما قدّمت شيئاً على أن أذهب نفسك يكون في ذلك ما كان ، فتخير في ثنتين لا بد لك منهما : إما أن تذهب عني في الأرض العريضة لا أسمع لك خبراً بعد أن تعطيني على ذلك الأيمان الموثقة ، وأنهلك لذلك بما أردت من مال وغيره ، ولما أن تقيم على كرهى ورغمى مستهدفاً إلىّ. فخذ الآن حذرَكَ منى فلست والله أبقي عليك ولا أدع اغتيالكَ باذلاً في ذلك بدنى ومالى ، فاقض قضاءكَ . فخرج زرياب لوقته وعلم قدرته على ما قال واختار الفرار قدّامه ، فأعانه إسحق على ذلك سريعاً ، وراش جناحه ، فرحل عنه ومضى يبغي مغرب الشمس» (١) .

ويترك زرياب بغداد ويقصد الأندلس فيصل إليها في أول إمارة عبد الرحمن الثاني سنة ٢٠٦ هـ / ٨٢٢ م (٢) . فيستقبله الأمير استقبالا فخماً ، وينزله في قصر من أحسن القصور ، ويكرمه ويقدمه على جميع المغنين .

إن النهضة الغنائية التي أحدثها قدوم زرياب إلى الأندلس دامت طويلاً وكان

(١) انظر أخبار زرياب في نفع الطيب ج ٢ ص ٧٤٩ - ٧٥٥ .

(٢) انظر ص ١٧ من هذا الكتاب .

لها أثر كبير في الشعر الأندلسي وفي اختراع الموشحات والزجل . وزرياب هو الذي زاد في الأندلس على أوتار العود وترّاً خامساً وكانت أربعة قبل عهده ، وهو الذي اخترع مضرب العود من قوادم النسر ، وهو الذي سنّ لأهل الأندلس سنناً في آداب الاجتماع أخذت عنه ونسبت إليه ، فقد روى أنه علم الأندلسيين طريقة جديدة لتصنيف الشعر وترتيبه شاعت عنه ، وعرفهم ألواناً جديدة من الطعام ، وهو أول من اجتنى بَقْلَةَ الهليون المسماة بلسانهم الأسفراج ، ولم يكن أهل الأندلس يعرفونها قبله ، وهو الذي دلّم على فنون جديدة في الطعام وفي ترتيب المائدة ، وأرشدهم إلى اتخاذ آنية الزجاج الرفيع بدلا من آنية الذهب والفضة ، ونقل إليهم أزياء من اللباس وغير ذلك من الأمور التي تدل على ذوقه المرفه وتعكس أثر الحضارة المشرقية .

وقد استطاع زرياب أن ينقل غناؤه إلى أكثر بقاع الأندلس ، بفضل أبنائه وجواريه الذين وفدوا معه وتلقوا على يده صناعته وحفظوها ونشروها وقد كان لهذه النهضة الغنائية فيما بعد أثرها في موسيقى الغرب أيضاً وفي شعره الغنائي . وجاء بعد زرياب أبو بكر بن باجة الغرناطي مؤلف الألحان فكان أن ارتقى على يده علم الموسيقى وأتم نهضة زرياب الغنائية .

نحو أدب أندلسي :

هذه النهضة الغنائية التي وفدت من الشرق وتطورت بتأثير الحياة الجديدة ، كانت تجاريها نهضة أدبية استقت أصولها من الشرق ثم أخذت تتطور رويداً رويداً بتأثير الاتصال الذي جرى بين العناصر المختلفة .

وقد رأينا كيف أقبل الإسبان على حضارة العرب يغترفون منها ، وعكفوا على اللغة العربية يتدارسونها ولا سيما بقرطبة عاصمة الملك حتى هال أسقفها ألفارو Alvaro هذا الأمر ، فكتب يشكو أنه لا يجد بين الألو من أبناء طائفته من يستطيع أن يكتب رسالة باللاتينية المقبولة على حين يتقن الكثيرون العربية وينظمون الأشعار فيها بمهارة لا تقاربها مهارة العرب أنفسهم^(١) ، ولا شك في أن التساهل

(١) انظر ص ٥٩ من هذا الكتاب .

الذى أبداه العرب والرؤاء الذى كان لحضارتهم قد مهدا السبيل لهذا الاتصال الذى بدت آثاره جليلة فى الإنتاج الأدبى الذى جاء يحمل طابع الشرق والأندلس معاً .
ويمكننا أن نقول إن الأدب العربى فى الأندلس ، وقد بلغ أوج ذروته فى حكم عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم والحاجب المنصور ، لم يستطع أن يتخلى عن أثر المشرق . وعندما جاء عهد ملوك الطوائف كانت الموشحات أظهر طابع امتاز به أدب الأندلس الذى صدر عن خصائص الحياة الجديدة .

طائفة من الأدباء

وقد نبغ فى بلاد الأندلس شعراء استطاعوا أحياناً أن يجاروا الفحول من شعراء المشرق فى بعض الأغراض وإن كانوا قد قصروا فى أغراض أخرى ولم يستطيعوا أن يتفوقوا عليهم . ولا بد لنا هنا من استعراض بعض الأسماء اللامعة على سبيل الذكر لا على سبيل الحصر .

بعض أدباء فترة مجد الدولة الأموية :

ابن عبد ربه (٢٤٦ - ٣٢٨ هـ)

يأتى ابن عبد ربه فى طليعة هذه الأسماء ، فقد ولد هذا الأديب الشاعر فى قرطبة سنة ٢٤٦ هـ ونشأ فيها ميالاً إلى العلم والأدب . ونال من أمراء بنى أمية بالأندلس دنيا عريضة وحلّ عندهم فى المكان الأسمى . وقد برع فى الفقه والتاريخ ودرس علوم العربية وأتقن الشعر والكتابة ، ويروى أنه كان فى صباه لاهياً مولعاً بالغناء ونظم فى ذلك القصائد والمقطعات الرقيقة الجميلة ، ثم أقبل فى كبره عن صباه وأخلص لله فى توبته ، ففعل مثل أبى نواس وغيره ، وأنشأ القصائد الزهدية على أوزان شعره الغزلى وقوافيه ومماها « الممحصات » لمحمّد بن زهيد عنه ذنوب شبابه ، أى يطهره منها . وقد أصيب فى نهاية عمره بالفالج ومات بقرطبة سنة ٣٢٨ هـ .
وابن عبد ربه من الشعراء المعدودين زمن الخلافة فى الأندلس ، وقد عارض

بعض شعراء المشرق . وشعره غزير ولكن أكثره فُقد ، ولم ينقل إلينا سوى ما دوّنه
النعالي في يتيمة الدهر .

وله في النثر كتابه الشهير المعروف بـ « العقد الفريد » نافس به المشاركة في فن
التأليف الأدبي . ولهذا الكتاب مزية هامة هي جمعه لكثير من الرسائل والخطب
والتقصص والفوائد التاريخية التي بادت الأصول المأخوذة هي عنها وبقيت فيه
مخلّدة . وقد قصره المؤلف على أخبار المشاركة ، ولعل السبب في ذلك أن الشرق
في نظر الأندلسيين موطن اللغة والأدب ، تحتل مؤلفاته المكان الأسمى ، وإليه
تتجه الأنظار . ويروى أنه ، لما وقع الكتاب في يد الصاحب ابن عباد ، أقبل
عليه ينشد فيه أخبار أهل المغرب ، ولما لم يجد فيه شيئاً جديداً ، تركه آسفاً وقال
جملته المشهورة : « هذه بضاعتنا رُدّت إلينا » .

وابن عبد ربه أُولع حقاً بمحاكاة أهل المشرق ولم تظهر عليه النزعة التجديدية،
وهي بعد ضئيلة ضعيفة في بلاده . فكان شعره متيناً محكماً ولكن لم تظهر عليه
آثار التجديد .

والمهم في شأن ابن عبد ربه أن ابن بسام صاحب الذخيرة والصلاح الكتبي
مؤلف فوات الوفيات وابن خلدون ينسبون إليه في رواية يتناقلونها أنه أول من سبق
إلى نظم الموشحات . وهذا زعم خاطئ سنجليه عند الكلام عن الموشحات ،
فالظاهر أن فن الموشح قد تأخر عن زمن ابن عبد ربه قليلاً ولم يكن لصاحب
العقد أثر فيه كما سنبين ذلك .

ابن هاني (٣٢٦ - ٣٦٣ هـ)

ومن الأسماء المشرقة في سماء الشعر الأندلسي ابن هاني . فقد ولد بإشبيلية
ونشأ بها واتصل بصاحبها ، وكانت الأندلس إذ ذاك في عصرها الذهبي زمن
عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم . واشتهر ابن هاني بالآراء الفلسفية وباللهمو
والحجون ، فحمل الفقهاء والشعب عليه واضطر صاحب إشبيلية إلى نصحه بالابتعاد
عن هذه المدينة زمناً فسافر إلى المغرب وسينّه ست وعشرون سنة . واتصل بجوهر
الصقلي قائد المعز ثم بالمعز نفسه فدحه وعلت منزلته عند الخليفة الفاطمي فجعله

شاعره الخاص . ثم سار المعز لفتح مصر ففتحها وأراد ابن هانيّ اللحاق به فمات ببرقة في طريقه إليه . وتأسّف المعز عليه وقال عندما بلغه خبر وفاته : « هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك » . وقد قال فيه ابن خلكان إنه عند المغاربة كالمثني عند المشارقة وليس في المغاربة من هو في طبقة لا من متقدميهم ولا من متأخريهم بل هو أشعرهم على الإطلاق . وهو صاحب القصيدة المشهورة :

تَقُولُ بَنُو الْعَبَّاسِ هَلْ فُتِحَتْ مِصْرُ فَقُلْ لِبْنِي الْعَبَّاسِ قَدْ قُضِيَ الْأَمْرُ
وَقَدْ جَاوَزَ الْإِسْكَانْدَرِيَّةَ جَوْهَرُ تُطَالِعُهُ الْبُشْرَى وَيَقْدُمُهُ النَّصْرُ

وله قصيدة يمدح بها المعز ويصف أسطوله وصفاً دقيقاً فيقول فيها :

أَمَّا وَالْجَوَارِي الْمُنْشَأَتِ الَّتِي سَرَتْ لَقَدْ ظَاهَرَتْهَا عُدَّةٌ وَعَدِيدُ
قِبَابٌ كَمَا تُزَجَّى الْقِبَابُ عَلَى الْمَهَا وَلَكِنَّ مَنْ ضُمَّتْ عَلَيْهِ أَسْوَدُ
وَلِلَّهِ مِمَّا لَا يَرَوْنَ كِتَابُ مُسَوِّمَةٌ تَحْدُو بِهَا وَجُنُودُ
أَطَاعَ لَهَا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ خَلَفَهَا كَمَا وَقَفَتْ خَلْفَ الصُّفُوفِ رُدُودُ
وَأَنَّ الرِّيحَ الذَّارِيَاتِ كِتَابُ وَأَنَّ النُّجُومَ الطَّالِعَاتِ سُودُ
وَمَا رَاعَ مَلِكُ الرُّومِ إِلَّا أَطْلَاعَهَا تَنْشُرُ أَعْلَامُ لَهَا وَبَنُودُ
عَلَيْهَا غَمَامٌ مُكْفَهَرٌ صَبِيرُهُ لَهُ بَارِقَاتٌ جَمَّةٌ وَرَعُودُ^(١)
مَوَاحِرُ فِي طَامِي الْعُبَابِ كَأَنَّهَا لِعِزْمِكَ بَأْسٌ أَوْ لِكَفِّكَ جُودُ
إِذَا زَفَرَتْ غَيْظًا تَرَامَتْ بِمَارِجِ كَمَا شَبَّ مِنْ نَارِ الْجَحِيمِ وَقُودُ^(٢)

(١) الصبير : السحاب المتراكم .

(٢) المارج : الشعلة شديدة اللمع .

فَأَفْوَاهُهُنَّ الْحَامِيَاتُ صَوَاعِقُ وَأَنْفَاسُهُنَّ الزَّافِرَاتُ حَدِيدُ
لَهَا شُعْلٌ فَوْقَ الْغِمَارِ كَأَنَّهَا دِمَاءٌ تَلَقَّتْهَا مَلَاحِفٌ سُودُ
تُعَانِقُ مَوْجَ الْبَحْرِ حَتَّى كَأَنَّهُ سَلِيْطٌ لَهَا فِيهِ الذُّبَالُ عَتِيدُ^(١)
فَلَيْسَ لَهَا إِلَّا الرِّيحَ أَعْنَةُ وَلَيْسَ لَهَا إِلَّا الْحَبَابَ كَدِيدُ^(٢)

ونلاحظ في هذا الوصف الضخامة في الألفاظ إلى جانب الصور البصرية ،
ولقد قادت هذه الفخامة وهذا الحبُّ للمبالغة في المدح والوصف وهذه الحكيم
المتفرقة في شعره - قادت المغاربة إلى تشبيهه بالمتنبى . إلا أن بعض النقاد كانوا
يرون أن ألفاظه طنانة لا معانى كبيرة تحتملها ، وإلى هذا أشار أبو العلاء عندما
قال : « ما أشبهه إلا بـرَحَى تطحن قروناً » . غير أن ابن خلكان يرى أن تعصُّب
المعري للمتنبى هو الذى دفعه إلى هذا القول ، ومهما يكن من أمر فالفرق بين
الشاعرين شاسع جداً ، فلم تكن لابن هانئ عبقرية المتنبى ولم يكن لديه المعين
النفسى والفلسفى الذى اغترف منه أبو الطيب .

وديوان ابن هانئ مرتب حسب حروف الهجاء طبع في مصر سنة ١٢٧٤ هـ
وفي بيروت سنة ١٨٨٤ م .

أحمد بن دراج القسطلی (٣٤٧ - ٤٢١ هـ)

وقد عرف من شعراء الدولة العامرية في قرطبة ابن دراج القسطلی^(٣) وكان
كاتب المنصور بن أبي عامر وشاعره ، وهو معدود من الفحول وقد شارك ابن
هانئ في لقب متنبى المغرب ، ولابن دراج رسائل وفصول في النثر لا تختلف
كثيراً عن الرسائل والفصول التي وضعت في العصر العباسي ، وله شعر أبلغ من نثره وقد
أجرى الثعالبي ذكره في يتييمته وهو صاحب الدالية المشهورة في سليمان بن الحكم :

(١) السليط : الزيت . الذبال : قنبل السراج . عتيد : قوى متين .

(٢) الكديد : الأرض الصلبة .

(٣) راجع بعض نثره وشعره في الذخيرة لابن بام ، القسم الأول المجلد الأول ص ٤٣ - ٧٨ .

شَهِدَتْ لَكَ الْآيَامُ أَنَّكَ عَيْدُهَا لَكَ حَنٌّ مُوحِشُهَا وَأَبَ بَعِيدُهَا

وله رائية في المنصور بن أبي عامر تقرأ فيها هذه الأبيات الجميلة التي يصف فيها وداعه لزوجته ويذكر ابنه الصغير الذي خلفه وراءه :

وَلَمَّا تَدَانَتْ لِلْوَدَاعِ وَقَدْ هَفَا بِصَبْرِي مِنْهَا أَنَّهُ وَزَفِيرُ
تُنَاشِدُنِي عَهْدَ الْمُدَّةِ وَالْهَوَى وَفِي الْمَهْدِ مَبْغُومُ النَّدَاءِ صَغِيرُ
عَبِيٌّ بِمَرْجُوعِ الْخِطَابِ وَلَفْظُهُ بِمَوْقِعِ أَهْوَاءِ النُّفُوسِ خَبِيرُ
تَبَوُّاً مَمْنُوعَ الْقُلُوبِ وَمَهَّدَتْ لَهُ أَذْرُعَ مَخْفُوفَةٍ وَنَحُورُ
عَصِيَّتُ شَفِيعِ النَّفْسِ فِيهِ وَقَادَنِي رَوَاحُ بِتَدَابُّ السُّرَى وَبُكُورُ
وَطَارَ جَنَاحُ الْبَيْنِ بِي وَهَفَتْ بِهَا جَوَانِحُ مِنْ دُغْرِ الْفِرَاقِ تَطِيرُ

* * *

وعرف أيضاً في هذه الفترة الشاعر الرمادي ، أبو عمر يوسف بن هارون وهو شاعر قرطبي مجيد عاصر المتنبي وتوفي سنة ٤٠٣ هـ كما ذكرنا^(١) . ويقول المقرئ إنه مشهور عند الخاصة والعامة لسلوكه في فنون من المنظوم والمنثور مسالك ، حتى كان كثير من شيوخ الأدب في وقته يقولون : فتّح الشعر بكيندة ، وختم بكيندة . يعنون امرأ القيس والمتنبي ويوسف بن هرون .

وعرف أيضاً أبو عامر بن شهيد من شعراء الدولة العامرية وكان وزير الناصر . ولد سنة ٣٨٢ هـ وتوفي بقرطبة سنة ٤٢٦ هـ ، وله رسالة سماها « التوايع والزوايع »^(٢) وهي تشبه « رسالة الغفران » للمعري في خيالها وأسلوبها . ومحور موضوعها أن الشاعر رافق إلى أرض الجن سميراً له أسماء زهير بن نمير وتنقل بين الأدباء والشعراء القدماء

(١) انظر ص ١٥ من هذا الكتاب ، الحاشية رقم (١) .

(٢) التوايع : ج تابع وتابعة : الجنى . والزوايع : ج زوبعة وهي الشيطان أو رئيس الجن .

ورواتهم فكان يطارحهم الشعر ويستمع إلى أخبارهم وتجرى بينه وبينهم مساجلات ومناظرات . وقد تفنن ابن شهيد في عرض هذه الأخبار بصورة تدعو إلى الإعجاب . وهذه الرسالة جديرة بالاهتمام ، وقد نشرها حديثاً في بيروت بطرس البستاني معتمداً على ما جاء منها في الذخيرة^(١) .

بعض شعراء ملوك الطوائف :

في هذا الدور أيضاً أسماء لامعة في الشعر والأدب نشير إلى أهمها . وقد رأينا أن ظهور ملوك الطوائف لم يكن حدثاً فاصلاً لرواج الأدب وازدهاره ، بل ، على العكس ، كان عهداً لاقى فيه الأدباء والشعراء كل رعاية وعطف . ويبدو لنا أن بني عبّاد هم أولى ملوك الطوائف بانتباهنا ، فقد كانوا هم أنفسهم شعراء كما ذكرنا ، وكان بلاطهم منتدى الأدب في عصرهم ، فهذا المعتضد يجعل يوماً من أيام الأسبوع - الاثنين - للشعراء يفدون به عليه فيطارحهم الشعر ويستمع إليهم ويحيز السابق بينهم ويشحذ همهم للنظم . وجاء المعتضد فبرز أباه في هذا المضمار حتى أصبح بلاطهم مركز الحركة الأدبية في الأندلس كما رأينا . وما يحكى عن المعتمد أنه أول ما تعرف إلى امرأته «اعتماد» الشهيرة بالرُميكية كان عن طريق الأدب ، فقد زعموا - كما يقول المقرئ - أن المعتمد ركب في النهر ومعه ابن عمار وزيره ، وقد زردت الريح النهر . فقال ابن عباد لابن عمار : أجز :

صَنَعَ الرِّيحُ مِنَ الْمَاءِ زَرْدُ

فأطال ابن عمار الفكرة ، فقالت امرأة من الغسالات :

أَيُّ دِرْعٍ لِقِتَالٍ لَوْ جَمَدُ

فتعجب ابن عباد من حسن ما أتت به ، مع عجز ابن عمار ، ونظر إليها فإذا هي صورة حسنة ، فأعجبته فسألها : أذات زوج هي ؟ فقالت : لا ، فتزوجها ، وولدت له أولاده الملوك النجباء^(٢) .

(١) انظر ص ٧٣ من هذا الكتاب ، الحاشية رقم ٣ . (٢) المقرئ ، ١١٠٠/٢ - ١١٠١ .

ومن أخبار الرميكية القصة المشهورة في قولها « ولا يوم الطين » وذلك أنها رأت الناس يمشون في الطين ، فاشتت المشى فيه ، فأمر المعتمد ، فسحقت أشياء من الطيب ، وذرت في ساحة القصر حتى عمته ثم نصبت الغرابيل ، وصب فيها ماء الورد على أخلاط الطيب ، وعجنت بالأيدى حتى عادت كالطين ، وخاضتها مع جواربها . وغاضبها في بعض الأيام فأقسمت أنها لم تر منه خيراً قط ، فقال : ولا يوم الطين ؟ فاستحييت واعتذرت . ويتابع المقرئ الخبر قائلا : وهذا مصداق قول نبينا صلى الله عليه وسلم في حق النساء : « لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله ثم رأت منك شيئاً قالت : ما رأيت منك خيراً قط » .

ولعل المعتمد يشير إلى هذه الحادثة في أبياته الرائية حيث قال في بناته :

يَطَانُ فِي الطِّينِ وَالْأَقْدَامُ حَافِيَةٌ كَأَنَّهَا لَمْ تَطَأْ مِسْكَاً وَكَافُوراً

فقد دخلت على المعتمد بناته وهو في سجنه بأغمار ، بعدما حلت به المصيبة ، دخلن عليه وهن في أطمارهن البالية ، يغالبن البكاء ويصارعن الذل ليرددن على مسامع أبيهن كلمات التهئة بأول عيد يمر عليهن في السجن ، فإذا بالأب الملك محتضن بناته وينشد هذه الأبيات (١) :

فِي مَاضِي كُنْتُ بِالْأَعْيَادِ مَسْرُوراً فَسَاءَ لَكَ الْعَيْدُ فِي أَغْمَاتِ مَأسُورِ
تَرَى بَنَاتِكَ فِي الْأَطْمَارِ جَائِعَةً يَغْزِلْنَ لِلنَّاسِ مَا يَمْلِكُنَّ قِطْمِيراً
بَرْزَنَ نَحْوِكَ لِلتَّسْلِيمِ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُنَّ حَسِيرَاتٍ مَكَاسِيرِ
يَطَانُ فِي الطِّينِ وَالْأَقْدَامُ حَافِيَةٌ كَأَنَّهَا لَمْ تَطَأْ مِسْكَاً وَكَافُورِ
لَا خَدَّ إِلَّا تَشَكَّى الْجَدْبَ ظَاهِرُهُ وَلَيْسَ إِلَّا مَعَ الْأَنْفَاسِ مَمْطُورِ

(١) انظر ديوان المعتمد ص ١٠٠ ، وقد جمعه أحمد أحمد بدوى وحامد عبد المجيد ، القاهرة

أَفْطَرْتُ فِي الْعِيدِ لِعَادَتِ مَسَاءَتُهُ فَكَانَ فِطْرُكَ لِلْأَكْبَادِ تَفْطِيرًا
 قَدْ كَانَ دَهْرُكَ إِنْ تَأْمُرُهُ مِمْتَثَلًا فَرَدَّكَ الدَّهْرُ مِنْهَا وَمَأْمُورًا
 مَنْ بَاتَ بَعْدَكَ فِي مُلْكٍ يُسَرِّبُهُ فَإِنَّمَا بَاتَ بِالْأَحْلَامِ مَغْرُورًا

وهكذا نرى أن المعتمد بن عباد من الملوك الشعراء دام ملكه ثلاثاً وعشرين
 سنة (٤٦٢ - ٤٨٤) وكان - كما قلنا - قد نكب في آخر حياته بملكه ونفسه وأبنائه
 ونفى إلى أغمات في أفريقية وسجن وقيد بالقيود بعد مجده وعزه في قصره الزاهي
 بإشبيلية فأخذ يتسلى عن حظه بنظم الأشعار من جور الزمان بعد أن كانت أشعاره
 تدور على اللهو ويجالس الأنس . ومن أمثلة شعره الذي يصور حياة الترف والجلال
 التي عاشها قوله (١) :

وَلَقَدْ شَرِبْتُ الرَّاحَ يَسْطَعُ نُورُهَا وَاللَّيْلُ قَدْ مَدَّ الظَّلَامَ رِدَاءَ
 حَتَّى تَبْدَى الْبَدْرُ فِي جَوَازِئِهِ مَلِكًا تَنَاهَى بِهِجَةً وَبَهَاءَ
 لَمَّا أَرَادَ تَنْزَهُاً فِي غَرْبِهِ جَعَلَ الْمِظْلَةَ فَوْقَهُ الْجَوَازَ
 وَتَنَاهَضَتْ زُهُرُ النُّجُومِ يَحْفُهُ لَأَلَاؤُهَا فَاسْتَكَمَلَ الْآلَاءَ
 وَتَرَى الْكَوَاكِبَ كَالْمَوَاكِبِ حَوْلَهُ رُفِعَتْ ثُرَيَّاها عَلَيْهِ لِيَوَاءَ
 وَحَكِيَّتُهُ فِي الْأَرْضِ بَيْنَ مَوَاكِبِ وَكَوَاكِبٍ، جَمَعَتْ سَنًا وَسَنَاءَ (٢)
 إِنْ نَشَرْتُ تِلْكَ (٣) الدَّرُوعَ حَنَادَسًا مَلَأَتْ لَنَا هَذِي (٤) الْكُثُوسَ ضِيَاءَ
 وَإِذَا تَغَنَّتْ هَذِهِ فِي مِزْهِرٍ (٥) لَمْ تَأُلْ تِلْكَ عَنِ التَّرِيكِ (٦) غَنَاءَ

(١) ديوان المعتمد ص ٢٨ . (٢) السنا بالقصر : الضوء . وبالمد : المجد والرفعة .

(٣) تلك : فاعل نشرت ، والإشارة إلى المراكب . والدروع مفعول به .

(٤) هذي : إشارة إلى الكواكب وهي فاعل ملأت . والكثوس مفعول به .

(٥) المزهر : العود الذي يضرب به .

(٦) التريك كما في اللسان (ترك) : بيضة الحديد للرأس والجمع ترائك وتريك .

أما أشعاره الشاكية التي قالها في محنته فنجد فيها لوناً خاصاً من الأدب ، فيه من الرقة والعاطفة ما يجعلنا نشعر أنها أشعار عزيز ذل . وكانت هذه الأشعار سلوى المعتمد في أسره ، بها يندب حظه ، ويحدث بالآلامه ، ويكي مصيره ومصير ملكه :

اقنعُ بحظِّكَ في دُنْيَاكَ ما كانَا وعزَّ نَفْسُكَ إنْ فارقتَ أوطَانَا
في الله من كل مفقودٍ مضى عَوْضُ فأشعرِ القلبَ سُلوَانَا وإيمانَا
أكلما سنحت ذكري طربتَ لها مجَّت دموعُكَ في خديكَ طوفانا
أما سمعتَ بسلطانِ شبيهك قد بزَّته سُودُ خطوبِ الدهرِ سلطانا
وطَّنْ على الكُره ، وارْقُبْ أثرَهُ فرجًا واستغنمِ الله تغنمَ منه غُفرانَا^(١)

وفي مكان آخر من ديوانه يقول :

أنباءُ أسْرِكَ قد طَبَّقْنَ آفاقًا بل قد عَمَّمنَ جهاتِ الأرضِ إقلاقا
سَرَتْ من الغربِ لا يُطوى لها قدمٌ حتى أتت شَرْقَهَا تنعَاكَ إشراقا
فأحرقَ الفجعُ أكبادًا وأفئدةً وأغرقَ الدمعُ آماقًا وأحداقا
قد ضاقَ صدرُ المعالي إذ نُعيتَ لها وقيل : إن عليك القيدَ قد ضاقا
أنِّي غلبتُ ، وكنت الدهرَ ذا غلبٍ للغالبين ، وللُسَبَّاقِ سَبَّاقا

قلتُ: الخطوبُ أذَلَّتْنِي طَوَارِقُهَا وَكَانَ عَزَمِي لِلْأَعْدَاءِ طَرَّاقًا
مَتَى زَايَتْ صُرُوفُ الدَّهْرِ تَارِكَةً إِذَا انْبَرَتْ لِدَوَى الْأَخْطَارِ أَرْمَاقًا^(١)

وهكذا نرى أن أسر المتعمد أثار كوامن عواطفه كما أثار في نفوس الشعراء عواطفهم تألماً وحسرة عليه . فهذا الشاعر الداني يشهد تلك الساعات الفاصلة في تاريخ دولة بنى عباد عندما تتقدم جنود ابن تاشفين لتضع القيد في يد ملك إشبيلية ولتحمله السفن هو وآله ، وتسير بهم في الوادي الكبير ، في طريقهم إلى أغمات ، على حين يحتشد الناس على ضفتي النهر يودعون ملكهم وأهله ويذرفون على أيامه سخين الدموع . هذه المشاهد المبكية والخطوب المؤلمة هي التي حركت في نفس الشاعر الداني لواعج الحزن والأسى فإذا به يرى ملكه بداليتة المشهورة :

تبكي السماء بدمع رائج غادى على البهاليل من أبناء عباد
وفيها يقول :

نسيتُ إِلَّا غَدَاةَ النهر كونهم في المنشآت كأمواتٍ بآلحاد
والناسُ قد ملأوا العبرين واعتبروا من لؤلؤ طافيات فوق أزباد
حُطَّ. القناع فلم تُستَر مُخَدَّرَةٌ وَمَزَّقَتْ أَوْجُهُ تَمزِيقَ أَبْرَاد
حان الوداع فضجَّت كلُّ صارخة وصارخ من مُفدَّةٍ ومن فادى
سارت سفائنهم والنوح يتبعها كأنها إبلٌ يحدو بها الحادى
كم سال في الماء من دمعٍ وكم حملت تلك القطائع من قِطْعَاتِ أَكْبَاد

ويتفجر الشعر رثاء عليه من كل حذب وصوب ، فإذا بالوزير ابن عبدون^(٢) يقول فيه رائيته الشهيرة التي مطلعها :

(١) ديوان المتعمد ص ١١٠ .

(٢) هو وزير بنى الأنطس في بطليوس وشاعرهم توفي سنة ٥٢٠ هـ .

الدهرُ يفجع بعدَ العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصُّورِ

وإذا بشاعره أبى بحر بن عبد الصمد يمضى إلى قبره بعد صلاة العيد مع ملا من الناس ويخر باكياً معفراً وجهه في تراب جدته وهو ينشد :

مَلِكَ الملوِكِ أَسامِعُ فأنادى أَم قد عَدْتُكَ عن السماع عَوادى
لما خَلَّتْ منك القصورُ فلم تكن فيها كما قد كنتَ فى الأعياد
قَبَلْتُ فى هذا الثرى لك خاضعاً وَتَخِذْتُ قَبْرَكَ موضعَ الإنشاد

وابن عبد الصمد هذا مع الشاعر الداني والشاعر ابن حمديس هم ثلاثة من شعرائه الذين وفوا له ورحلوا إليه بعد ذله وسجنه . وهناك عدد من الشعراء الذين عاصروا المعتمد وقالوا فيه الشعر نجد أخبارهم فى النفح والقلائد وغيرها من كتب الأدب .

النساء الشاعرات (١):

إذا كانت الشاعرات قد شاركن الشعراء فى نظم الشعر كما ذكرنا ، فيمكننا أن نقول إن هذه الظاهرة قد بدت مع ظهور ملوك الطوائف ، فى زمنهم أخذ الشعر يتسرب إلى دور الحرير فى القصور وأخذت النساء من بنات الملوك والأمراء والجوارى على اختلاف طبقاتهن ، يفقهن هذا اللون من الأدب ويحسنن نظمه . وقد أورد المقرئ شعراً لطائفة كبيرة من الحرائر والجوارى . وأكثرهن عرفن فى عهد ملوك الطوائف ، نذكر منهن : أم السعد بنت عصام الحميرى ، وحسانة التميمية ، وأم العلاء بنت يوسف الحجازية ، وأم الكرام بنت المعتصم بن صمادح وجاريتة غاية المنى ، والشاعرة الغسانية البجانية نسبة إلى بجانة ، والعروضية مولاة

(١) انظر المقرئ ، نفح الطيب ١٠٧٦/٢ - ١١٤٦ (وانظر أيضاً طبعة محمد محي الدين عبد الحميد لكتاب نفح الطيب ج ٥ ص ٢٩٩ وما بعدها و ج ٦ ص ١٩ وما بعدها) .
فى الأدب الأندلسى .

أبى المطرف عبد الرحمن بن غلبون الكاتب ، وحفصة بنت حمدون الحجازية ،
ونزهون الغرناطية ، وحفصة الركونية ، والعبادية جارية المعتضد ، واعتماد زوج
المعتمد الشهيرة بالريمكية السابقة الذكر ، وبثينة بنت المعتمد ، وحمدة بنت
زياد المؤدب ، وولادة بنت المستكفي ، ومهجة القرطبية جاريتها ، وغيرهن .
وقد مرت أسماء بعضهن في أثناء الكلام على شغف الأندلسيين بالشعر^(١) ، ولا يتسع
المجال هنا للذكر نبذ من أشعارهن ، وسنعود إلى الكلام على ولادة عندما نتحدث
عن ابن زيدون الذي سنفرد له باباً خاصاً ، ونكتفي في هذا المقام بذكر أبيات
من شعر حمدة .

حمدة ، ويقال لها حمدونة ، بنت زياد المؤدب من وادي آش ، هي شاعرة
الأندلس ، ولقبت بخنساء المغرب على الرغم من أن شعرها ليس في الرثاء بل في
الغزل . ومن جميل ما قالت هذه الأبيات :

ولما أبى الواشون إلا فراقنا ومالهم عندي وعندك من ثارٍ
وشنؤنا على أسماعنا كل غارة وقل حُماتي عند ذاك وأنصاري
غزوتهم من مقلتيك وأدمعي ومن نفسي بالسيف والسيل والنار
وخرجت حمدة مرة للوادي مع صبية ، فلما نضت عنها ثيابها وعامت قالت :

أباح الدمع أسراري بوادي له للحسن آثارٌ بوادي
فمن نهرٍ يطوفُ بكل روضٍ ومن روض يرفُّ بكل وادي
ومن بين الظباء مهأة أنسٍ سبت لي وقد ملكت فوادي
لها لحظ. ترقده لأمرٍ وذاك الأمرُ يمنعي رُقادي

(١) انظر ص ٦٣ من هذا الكتاب .

إِذَا سَدَلْتُ ذَوَائِبَهَا عَلَيْهَا رَأَيْتَ الْبَدْرَ فِي أَفْقِ السَّوَادِ
كَأَنَّ الصَّبْحَ مَاتَ لَهُ شَقِيقٌ فَمِنْ حُزْنٍ تَسْرِبِلٍ بِالْحَدَادِ
وهناك رواية تقول إن هذه الأبيات لحمة العوفية . وقد نسب الأندلسيون
إلى حمدة بنت زياد المؤدب الأبيات الجميلة الآتية الشهيرة في بلاد المشرق وهي :

وَقَانَا لَفْحَةَ الرَّمْضَاءِ وَادٍ سَقَاءُ مُضَاعَفِ الْغَيْثِ الْعَمِيمِ
حَلَلْنَا دَوْحَهُ فَحَنَّا عَلَيْنَا حُنُوَ الْمُرْضِعَاتِ عَلَى الْفَطِيمِ
وَأَرْشَفْنَا عَلَى ظَمَأٍ زُلَالاً أَلَذَّ مِنَ الْمُدَامَةِ لِلنَّدِيمِ
يَصِدُّ الشَّمْسَ أَنَّى وَاجْهَتْنَا فَيَحْجِبُهَا وَيَأْذُنُ لِلنَّسِيمِ
يَرُوعُ حِصَاةَ حَالِيَةِ الْعَذَارَى فَتَلْمَسُ جَانِبَ الْعِقْدِ النَّظِيمِ

ويرى بعض المؤرخين ، ومنهم ابن النديم ، أن قائل هذه الأبيات هو الشاعر
المنازي ، إلا أن أبا جعفر الأندلسي الغرناطي ، نزيل حاب ، يدفع ذلك فيقول :
« . . . وقد تلبس بعضهم أيضاً بشعارها ، وادعى غير هذا من أشعارها ، وهو
قولها ، وقانا لفحة الرمضاء ، وأن هذه الأبيات نسبها أهل البلاد (أى بلاد المشرق)
للمنازي من شعرائهم ، وركبوا التعصب في جادة ادعائهم ، وهي أبيات لم يحلها غير
لسانها ، ولا رَقَمَ برديها غير إحسانها . ولقد رأيت المؤرخين من أهل بلادنا ، وهي
الأندلس ، أثبتوها لها قبل أن يخرج المنازي إلى الوجود ، ويتصف بلفظة
الموجود » (١).

(١) المقرئ ، ج ٢ ص ١١٤٢ - ١١٤٣ (ومن طبعة محمد محي الدين عبد الحميد ج ٦ ص ٢٤).

ابن حمديس (٤٤٧ - ٥٢٧ هـ) :

ومن بين الشعراء النابهن في دور الطوائف ابن حمديس . ولد أبو محمد عبد الجبار بن محمد بن حمديس الأزدى الصقلي في جزيرة صقلية عام ٤٤٧ هـ في آخر حكم العرب لهذه الجزيرة ^(١) . وقد امتازت صقلية بطبيعتها الغنية ووديانها الحصبة وأنهارها الجارية ، وأثارت في نفوس سكانها منذ القديم التفتي بحياتها الريفية .

وقد عالج ابن حمديس نظم الشعر وهو صغير ولكنه بقي خامل الذكر . ولما كان في ميعة الشباب استولى النورمانديون على وطنه صقلية وشاهد ما حل ببلده من الخراب وبقومه من العذاب فأذكى ذلك ، فيما يبدو ، من شاعريته ولكنه ظلّ دائم الانقباض كثير التشاؤم رقيق الشعور .

وبعد أن حلت النكبة بوطنه رحل إلى الأندلس سنة ٤٧١ هـ ولاذ بكنف المعتمد ابن عباد بإشبيلية وأصبح شاعره . ولما استولى ابن تاشفين على إشبيلية ونفى ابن عباد منها إلى قلعة أغمات بمراكش لحق ابن حمديس سيده إلى منفاه وبقي وفيها له ينظم الشعر الحزين . ولما توفي ابن عباد سار ابن حمديس إلى قرية المهديّة الإفريقية وبقي فيها حقبة من الدهر ، ثم انتقل إلى ميورقة ، وهي جزيرة صغيرة شرق الأندلس ، فمات بها أعمى بائساً سنة ٥٢٧ هـ . ولابن حمديس ديوان شعر طبع في بالرم سنة ١٨٨٣ م . وفي روما سنة ١٨٩٧ م وفي بيروت سنة ١٩٦٠ م

كان لنشأة ابن حمديس في جزيرة صقلية ذات الطبيعة الوارفة الظلال أثر في ظهور فن الوصف في شعره وعنايته به ، إلا أن الفترة المضطربة التي عاشها الشاعر في أواخر حكم العرب للجزيرة ، وسط بيئة أعجمية وفتن متصلة ، لم تسمح له بالاستمتاع التام بهذه البيئة وحسن التعبير عن جمالها . ولما رحل إلى الأندلس وإلى المغرب اتصل بالنزعات الأدبية في تلك البلاد وشارك فيها وعبر عنها ، وكان في تعبيره هذا يمثل الطور الثالث للشعر الأندلسي الذي أخذ يصور البيئة وما فيها

(١) حكم العرب جزيرة صقلية بين عامي ٢١٩ - ٤٦٤ هـ .

من حداثة وجدة كما يعبر عن نزعات سابقه من القدماء والمحدثين^(١) .
ونشأة الشاعر ذى الأصل العربى فى موطن أعجمى يحارب العروبة ، ثم
انتقاله إلى أرض الأندلس ومصاحبه العرب فيها وفى قفار المغرب ، أدى به إلى
ازدياد تعلقه بالعرب وبيئتهم وما يتصل بهم من ألوان التفكير والأساليب ، ولذا
أكثر من مدحهم والفخر بهم ووصف حياتهم .

وأول ظاهرة لوصف هذه الحياة تبدو فى تغنيه بالطبيعة البدوية ، فقد وصفها
وبالغ فى الوقوف على الأطلال عمدياً فى ذلك معانى القدماء والمحدثين .

وقد أوضح الدكتور سيد نوفل أن الجمع بين معانى القدماء والمحدثين يبدو
على أتمه حين يتحدث عن الأطلال حديثاً مؤثراً ، ثم يتبع مذهب أبى نواس فى
السخرية منها والهاثف بالخمير فى ظل الطبيعة الوارف . وينطبق هذا كذلك على
أوصافه الأخرى للخيل والإبل والغيث والبرق والبيداء والصيد .

ويتابع الدكتور نوفل كلامه قائلاً : إن وصف الطبيعة عند ابن حمديس
وثيق الصلة بوصف الخمر ، والطبيعة بمختلف مظاهرها مسرح للشرب واللهو وهى بحماها
تقود إلى الخمر ، والخمر توضح جمال الطبيعة . . وما علينا إلا أن نقرأ ديوانه لنراه
يشرب عند طلوع الفجر فى روضة فواحة الزهر مخضلة ، ويشرب قبل أن ترتشف
الشمس ريق الغواذى من ثغور الأفاح ، ويشرب عند المغيب والشمس تلبس
من الغيم نقاباً ، ويشرب على إيماض برق كأنه نور مصباح شب فى سواد
الليل^(٢) .

(١) نلاحظ أن الشعر الأندلسى ، بوجه عام ، قد مر بأطوار ثلاثة : الطور الأول ، وهو يمثل
شعر التقليد لأدب المشرق ، ويبدأ منذ فجر عصر الأمويين فى الأندلس حتى القرن الخامس الهجرى ،
ومن شعرائه ابن عبد ربّه وابن هانيّ وابن شهيد وابن دراج القسطلّى وغيرهم . والطور الثانى ، وهو الحقبة
التي امتدت خلال القرن الخامس ، وفيها أخذ الشعراء يصعدون عن حاضرهم ويمثلون بيئتهم ومظاهرها
، النفس ومشاعرها مع الأخذ بحظ من التقليد ، ويمثل هذا الطور ابن زيدون وابن عمار والمعتمد بن عباد
والأعمى التطيلي ومن إليهم من شعراء ملوك الطوائف الذين يجمعون طرافة البيئة إلى معانى اشعراء السابقين ،
وفى نهاية هذا القرن ثم انتصار الجديد واتسعت حركة الموشحات . أما الطور الثالث فيضم شعراء القرن
السادس وما بعده وفيه أخذ الشعراء يمثلون البيئة وتجتمع لهم الحداءة والجدّة ويمثل هذا الطور من الشعراء
ابن حمديس وابن عبدون وابن خفاجة وابن سهل ولسان الدين بن الخطيب وابن زمرك وغيرهم .

(٢) « شعر الطبيعة فى الأدب العربى » ص ٢٧٠ - ٢٧١ .

وهكذا ينتهى الدكتور نوفل إلى أن ابن حمديس قد لاحق الطبيعة بالحر في جميع الأوقات والأحوال الطبيعية وأبان عن فتنة الطبيعة في مظاهرها المختلفة . فلها من مظاهر الحسن في كل آن ما يغرى بها وما يدنع إلى الطرب لمراها .

وفي الأبيات الآتية التى نقتطفها من إحدى خمرياته يمثل الشاعر مختلف مظاهر الطبيعة الجميلة في جو من الحر . فيقول :

طَرَقَتْ وَاللَّيْلُ مَحْدُودُ الْجَنَاحِ مرحباً بالشمس في غير صباح
غَادَةٌ تَحْمِلُ فِي أَجْفَانِهَا سَقَمًا فِيهِ مَنِيَّاتُ الصُّحَاخِ

* * *

فَلَا شَقِيَّ عَنْ إِذْنِ سُلْطَانِ الْهَوَى ليس يشقى الروحَ إلَّا كَأْسُ رَاخِ
وَانْتَظِرْ لِلْجِلْمِ بَعْدَى كَرَّةٍ كم فسادٍ كان عُقباه صلاحِ
فَالْقَضِيبُ اهْتَزَّ وَالْبَدْرُ بَدَا والكثيبُ ارتجَّ والعنبرُ فَاخِ
وَالثُّرَيَّا رَجَحَ الْجَوْ . بِهَا كابن ماءٍ ضَمَّ لِلوَكْرِ جَنَاحِ
وَكَأَنَّ الْغَرْبَ مِنْهَا نَاشِقٌ باقَّةً مِنْ يَاسْمِينٍ أَوْ أَقَاخِ
وَكَأَنَّ الصَّبِيحَ ذَا الْأَنْوَارِ مِنْ ظُلَمِ اللَّيْلِ عَلَى الظُّلَمَاءِ لَاحِ
فَاشْرَبِ الرَّاحَ وَلَا تُخْلِ يَدًا مِنْ يَدِ اللَّهِوَ غُدُوًّا وَرَوَاحِ
فِي حَدِيقِ غَرْسِ الْغَيْثِ بِهِ عَبَقَ الْأَرْوَاحِ مَوْشَى الْبَطَاحِ
تَعْقِلِ الطَّرْفَ أَزَاهِيرُ بِهِ ثُمَّ تُعْطِيهِ أَزَاهِيرَ صُرَاحِ

أَرْضَعِ الْغَيْمُ لِبَانًا بَانَهُ فَتَرَبَّتْ فِيهِ قَامَاتُ الْمِلَاحِ
كُلُّ غَصْنٍ تَعْتَرِي أَعْطَافَهُ رِعْدَةُ النُّشْوَانِ مِنْ كَأْسِ اصْطِبَاحِ

وهكذا فقد أوجز الشاعر في هذه الحمزية جمال الطبيعة المتنوع ، ونلاحظ أن الشاعر يقبل على الطبيعة بثقافته الشعرية فيتأملها ويستخرج من المعاني أروعها : فإذا بقامات الملاح بعض نباتها وإذا بالنشوة تسرى في أغصانها وبالفتنة تأسر بصر الشاعر . فيبدو عالم الطبيعة في حركة وزينة وطرب .

إلى جانب هذا الوصف الذي تتجلى فيه الطبيعة حية مشخصة تبدو عناية الشاعر بتصوير الطبيعة اللامعة على مثال ابن المعتز في العناية بالشكل وتجسيده . كقوله :

اشْرَبْ عَلَى بَرَكَةِ نَيْلُوفِرٍ مُحَمَّرَةٍ النُّوَارِ خَضِرَاءِ
كَأَنَّمَا أَزْهَارُهَا أَخْرَجَتْ أَلْسِنَةً النَّارِ مِنَ الْمَاءِ

هذه الأوصاف وغيرها ترسم لنا فتنة ابن حمديس بالطبيعة وإقباله على مباحثها ، وهو بذلك يعبر عن بيئته الحميلة التي تنقل في أفيائها وعماء اعتاده شعراء عصره من الإقبال على استجلاء محاسنها والتنزه في رياضها . وقد قدّم لنا الشاعر بعض الأوصاف التي تتجلى فيها روح الابتكار والإبداع والتي تبدو من خلالها نفسه الحزينة كقوله في وصف نهر :

وَمُطَرِّدِ الْأَجْزَاءِ يَصْقُلُ مَتْنَهُ صَبًا أَعْلَنْتُ لِلْعَيْنِ مَا فِي ضَمِيرِهِ
جَرِيحٍ بِأَطْرَافِ الْحَصَى كَمَا جَرَى عَايَاهَا شَكَا أَوْجَاعِهِ بَخْرِيرِهِ

وكقوله أيضاً يصف نهراً ينبعث من عين ماء :

وَمَرْوِي صَدَى الرُّوضَاتِ يَحْسِبُ ذَائِبًا عَلَى الْأَرْضِ مِنْهُ جَمْلَةٌ تَتَبَعُضُ

كَأَنَّ لَهُ فِي الْجِسْمِ رَوْحاً إِذَا جَرَى بِهِ نَهْضُهُ وَالْجِسْمُ بِالرُّوحِ يَنْهَضُ
 وَمَا هُوَ إِلَّا دَمْعُ عَيْنٍ كَأَنَّهَا لَطُولُ بَكَاءٍ دَهْرَهَا لَا تَعْمُضُ
 إِذَا سَرَحَتْ لِلْسَّقَى مِنْ كُلِّ جَانِبٍ رَأَيْتَ بِقَاعَ الْأَرْضِ مِنْهُ تَرَوَّضُ
 يَقِيمُ عَلَيْهَا الْإِنْسُ وَالصَّبْحُ مُقْبِلٌ وَيَرْحَلُ عَنْهَا الْوَحْشُ وَاللَّيْلُ مُعْرِضُ
 فِهَذَا الْوَصْفُ يَنْطِقُ بِالِإِمْعَانِ وَالتَّأْمَلِ فِي صُورِ الطَّبِيعَةِ وَيَعِزُّزُ مِنْ مَادَّةِ
 نَفْسِهِ الْحَزِينَةِ .

وَفَتْنَةُ الشَّاعِرِ بِالطَّبِيعَةِ جَعَلَتْهُ يُدْخِلُ أَوصَافَهَا فِي أَغْرَاضِ الشَّعْرِ الْآخَرَى .
 فَأَوْسَعَ أَغْرَاضِ الشَّعْرِ عِنْدَهُ الْمَدْحَ وَيَلِيهِ الْوَصْفُ ، وَلَكِنَّ الطَّبِيعَةَ تَنْسَابُ فِي جُمْلَةٍ
 أَغْرَاضِهِ ، فَيَصِفُ الطَّبِيعَةَ فِي الْغَزْلِ وَيَصُورُ مُحَاسِنَ الْحَنِيبِ عَلَى مِثَالِ مُحَاسِنِ
 الطَّبِيعَةِ ، وَيَصِفُهَا فِي الْمَدْحِ بَلْ أَكْثَرَ شَعْرَهُ الْمَدْحَى مَصْبُوغٌ بِصَبْغَةِ الطَّبِيعَةِ ،
 وَيَصُورُهَا قُوَّةً فِي الْحِمَاسَةِ وَالْفَخْرِ ، وَحَزْبَةً بِأَكْيَةِ فِي الرِّثَاءِ .
 وَابْنُ حَمْدِيسٍ أَحَدُ أَوْلَئِكَ الشُّعْرَاءِ الَّذِينَ جَمَعُوا بَيْنَ وَصْفِ الطَّبِيعَةِ الطَّبِيعِيَّةِ
 وَطَّبِيعَةِ الصَّنَاعِيَةِ كَالْقُصُورِ وَالْبُرْكِ وَالنَّائِيلِ وَالرُّسُومِ . فَلْنَسْمَعْهُ يَصِفُ بَرَكَةً فِي
 قَصْرِ ابْتِنَاهِ الْمَنْصُورِ بْنِ أَعْلَى النَّاسِ بِبِجَايَةِ ، وَعَلَى هَذِهِ الْبَرَكَةِ أَشْجَارٌ مِنَ الذَّهَبِ
 وَالْفُضَّةِ وَأَسْوَدٌ مِنَ الْمَرْمَرِ يَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهَا الْمَاءُ كَمَا يَخْرُجُ مِنْ أَطْرَافِ تِلْكَ الْأَشْجَارِ
 فَيَسْمَعُ لَهَا خَرِيرٌ وَصَفِيرٌ ، قَالَ :

وَضَرَاغِمٍ سَكَنْتُ عَرِينَ رِثَاسَةً تَرَكْتُ خَرِيرَ الْمَاءِ فِيهِ زَيْثِرَا
 فَكَأَنَّمَا غَشَى النُّضَارُ جِسْمَهَا وَأَذَابٌ فِي أَفْوَاهِهَا الْبِلُّورَا
 أَسَدٌ كَأَنَّ سَكُونَهَا مَتَحَرَّكٌ فِي النَّفْسِ لَوْ وَجَدَتْ هُنَاكَ مُثِيرَا
 وَتَذَكَّرْتُ فَتَكَاتِهَا فَكَأَنَّمَا أَقَعْتُ عَلَى أَدْبَارِهَا لَتَثُورَا
 وَتَخَالِهَا ، وَالشَّمْسُ تَجْلُو لَوْنَهَا نَارًا ، وَلَلْسُنَّهَا اللَّوْاحِسُ نُورَا

فكأنما سَلَتْ سيوفَ جداولٍ ذابت بلا نارٍ فعُذُنٌ غديرا
شجريةٌ ذهبيةٌ نَزَعَتْ إلى سِحْرِ يُؤَثِّرُ في النُّهى تأثيرا
قد سُرِّحَتْ أغصانها فكأنما قَبَضَتْ بهنَّ من الفضاء طيورا

ونلاحظ أن هذا الوصف دقيق التفاصيل أنيق اللفظ إلا أنه جامد ضعيف الإيحاء . وهكذا نرى أن أكثر أوصاف الشاعر لوحات جميلة دقيقة التقاسيم واضحة الزخرف ولكنها لا تشع بروح الحياة ، وهو يشبه بها ابن المعتز وابن خفاجة بل يشبه أكثر الشعراء الوصافين في العربية الذين يعتمدون على الصورة البصرية في وصفهم أكثر من اعتمادهم على وحى القلب وإشعاع النفس وهزة العاطفة .

والخلاصة أن ابن حمديس شاعر فُتِنَ بالطبيعة وعكف عليها ، عندما كان ينطلق من قيود همومه وأحزانه ، ومتعَّ بصره بجمالها وصورها صورا أمينة عبرت عن جمالها في كثير من الحذق والصنعة . وقد نفخ فيها من فنه أكثر مما أعطاه من روحه . ونحن إذا أعجبنا بشعره في وصف الطبيعة فإنما نعجب لما فيه من روائع الفن ، ويبقى ابن حمديس ، في نظرنا ، شاعرا شاكيا لأن الحنة التي حلت بوطنه الأول صقلية جعلته دائم الأسى ، فأخذ يشكو الزمان ولؤم الناس ويتبرم بالحياة على طريقة أبي العتاهية ؛ ولهذا كان من الطبيعي أن يكون شعر الشكوى أكثر انسجاماً مع نفسيته وحياته التي ذكرنا خلاصة عنها .

ابن خفاجة (٤٥٠ - ٥٣٣ هـ) :

وهذا شاعر آخر من شعراء دور ملوك الطوائف تتمثل فيه الجدة والحداثة . ويعكس بيئة الأندلس وطبيعتها الضاحكة ، وتتجلى فيه الصفة الأندلسية وحبه للطبيعة أكثر من غيره .

ولد أبو إسحق إبراهيم بن أبي الفتح بن خفاجة سنة ٤٥٠ هـ في بلدة شتة - وهي مدينة منعزلة في شرقي الأندلس مشهورة بجمال طبيعتها . وسافر إلى عدوة

المغرب فاشتد شوقه إلى وطنه الحميل ورجع إليه ومات سنة ٥٣٣ هـ في المدينة التي ولد فيها .

والأخبار التي بين أيدينا ضئيلة بتفاصيل حياة الشاعر ، إلا أننا نعلم أنه عاش حياة هادئة ولم يتصل بأحداث السياسة . وفي ديوانه عدد من المدائح ولكنه لم يستدل نفسه لهذا الغرض ، وأكثر مدائحه في أبي إسحق إبراهيم بن يوسف ابن تاشفين الذي خلف أباه في دولة المرابطين .

عاش ابن خفاجة طويلاً وتجاوز الثمانين ، واستمتع في شبابه وكهولته بالحياة واقتنى لذاتها مع إخوانه وأصدقائه في أحضان الطبيعة ومجالس اللهو فيها . وفي آخر أيامه اعترته الوحشة فبكى صباه وتنسك إلى أن وافته المنية .

لقد كان ابن خفاجة شاعر عصره ، استولت عليه روح المرح والمتاع بالحياة فأقبل على الطبيعة يتنزه في مغانها ويتملى من مباهجها فتمتلى* نفسه بشراً ويعبر عنها تعبيراً يفيض حبوراً . ولقد كان لنشأته المترفة ولجمال بلده أثر في تغذية خياله وتكوين تأملاته فنظر إلى الطبيعة نظرة طويلة فاحصة ساعدته على دقة التعبير عن معانيه . وقد سمي بشاعر شرق الأندلس ، كما سمي بالشاعر البستاني ، ولقبه المقرئ بصنوبري الأندلس لعنايته بوصف الطبيعة ولا سيما الجانب الضاحك منها .

فما هي المظاهر الطبيعية التي وصفها وما ميزاته فيها ؟

لقد وصف الشاعر الطبيعة بجميع مظاهرها ومباهجها ، فوصف الطبيعة الصامتة برياضها وأشجارها وأزهارها وأنهارها وجبالها ومفاوزها وسماها ونجومها وما يتصل بذلك كله من نسيم ورياح وأمطار ، وكان الشعور الغالب على هذا الوصف المرح والبشر إلا ما كان من أمر وصفه للجبل إذ سادته التأمل والنظرة الحزينة . ووصف أيضاً الطبيعة الحية كالفرس والذئب وبعض الطيور ، وهكذا فقد كانت الطبيعة مستوية على حواسه ، ولم يستطع أن ينساها حتى في أغراضه الأخرى ، فتوثقت الصلة بينه وبينها فأخذ يشعر بالبشر يحيط به عندما يحل في مغانها وإذا بها ذات جمال ودلال وبهاء ، فلنسمعه يصفها وقد اختالت زينة وبهجة وبدت تشارك الغادة الفاتنة في جمالها :

وَكِمَامَةٍ حَدَرَ الصَّبَاحُ قِنَاعَهَا عَنْ صَفْحَةٍ تَنْدَى مِنَ الْأَزْهَارِ
 فِي أَبْطَحٍ رَضَعَتْ ثُغُورُ أَقَاحِهِ أَخْلَافَ كُلِّ غَمَامَةٍ مِذْرَارِ
 نَشَرَتْ بِحِجْرِ الْأَرْضِ فِيهِ يَدُ الصَّبَا دُرَرَ الذِّدَى وَدِرَاهِمَ النُّوَّارِ
 وَقَدَارْتَدَى غَصْنُ النِّقَا وَتَقَلَّدَتْ حَلَى الْحَبَابِ سَوَالِفُ الْأَنْهَارِ
 فَحَلَلْتُ حَيْثُ الْمَاءُ صَفْحَةً ضَا حَاكَ جَذَلَ وَحَيْثُ الشَّمْطُ بَدَأَ عِذَارِ
 وَالرِّيحُ تَنْفُضُ بُكْرَةً لِمَمِّ الرَّبِّي وَالطَّلُّ يَنْضَحُ أَوْجَهَ الْأَشْجَارِ
 مُتَقَسِّمُ الْأَلْحَاطِ بَيْنَ مُحَاسِنِ مِنْ رَذْفٍ رَابِيَةٍ وَخَضِرٍ قَرَارِ
 وَأَرَاكَةَ سَجَعَ الْهَدِيلُ بِفِرْعَاهَا وَالصَّبْحُ يُسْفِرُ عَنْ جَبِينِ نَهَارِ
 هَزَّتْ لَهُ أَعْطَافَهَا وَلَرَبَّمَا خَلَعَتْ عَلَيْهِ مُلَاعَةَ النُّوَّارِ

والشاعر ينظر إلى الطبيعة نظرة محب والأبيات الآتية تمثل نفسيته المحبة التي يتوزعها جمال الطبيعة وجمال الإنسان ، قال في مقدمة قصيدة يمدح بها أبا الحسن ابن نعيم :

وَإِنِّي وَإِنْ جِئْتُ الْمَشِيبَ لَمَوْلَعُ بِطُرَّةٍ ظِلُّ فَوْقَ وَجْهِ غَدِيرِ
 فَيَا حَبِذَا مَاءُ بِمُنْعَرَجِ اللَّوَى وَمَا اهْتَزَّ مِنْ أَيْكَ عَلَيْهِ مَهْطِيرِ
 وَنَفْحَةُ رِيحٍ لِلرَّبِيعِ ذَكِيَّةُ وَلَمِحةُ وَجْهِ لِلشَّبَابِ نَضِيرِ
 وَنَعْسَةُ طَرْفِ الْعَيْنِ مِنْ سِنَةِ الْكَرَى لِرَجْعِ خَرِيرٍ أَوْ لَشَجْوِ هَلِيرِ

ويمكننا أن نلخص ميزاته في وصف الطبيعة في العناصر الآتية :

١ - اتصاله بالطبيعة وإشراك حواسه بها ، فقد خاطب الشاعر الطبيعة

وامتزج بها في بعض قصائده ، واتصل بها اتصال الصديق بالصديق ولجأ إليها واستمع إلى عظامها في رحابها وقصيدته في وصف الجبل خير شعره الذي يمثل هذه الخاصة . فقد أثار مرأى الجبل في نفسه عاطفة إنسانية جعلته يبعث في هذا الطود المنتصب رعشة الحياة ، فأخذ يستمع إلى عظامه وعبره ، ويترجم له أفكاره وحسه ، وبدا الجبل شيخاً وقوراً متمللاً من طول بقائه وهو يشاهد مواكب الإنسانية تمر وتمضي ويطويها الزمن (انظر هذه القصيدة فيما يأتي من المنتخبات . ص ١٣٩).

هذه القصيدة في وصف الجبل تمنحنا نفحة جديدة للشعر الأندلسي هي هذه المشاركة في العواطف التي يشعر بها المتأمل لسحر الطبيعة وما يعتره من رهبة أو طرب وإعجاب . ولهذا نستطيع أن نقول إن ابن خفاجة قد استطاع في هذه القصيدة أن يناجي الطبيعة على نسق جديد لم يعهده الشعر العربي القديم ، فأشرك النفس الإنسانية بسر الطبيعة وأدرك ما يسمى عند الفرنجة بحس الطبيعة .

٢ - الطبيعة عند ابن خفاجة ضاحكة طروب ، هي مسرح للهو ومقصف للشراب ، ولذا فقد هتف ابن خفاجة بالخمير في جو الطبيعة المشرق الجميل ، فلنسمعه يصف هذه الحديقة الراقصة لئلا نرى أن الطرب والرقص والغناء وسحات الحسن هي قوام هذا الوصف وأن الخمر ظل ضئيل في هذا الوصف للطبيعة الالهية :

وصقيلة الأنوار تَلَوِي عِطْفَهَا رِيحٌ ، تَلَفُ فُرُوعَهَا ، مِعْطَارُ
عَاطَى بِهَا الصَّهْبَاءُ أَحْوَى أَحْوَرُ سَحَابُ أَذْيَالِ السُّرَى سَحَارُ
وَالنُّورُ عِقْدُ وَالْغُصُونُ سَوَالِفُ وَالْجِذْعُ زَنْدُ وَالْخَلِيجُ سِوَارُ
بِحَدِيقَةٍ ظِلُّ اللَّحْمَى ظِلًّا بِهَا وَتَطَلَّعَتْ شَنْبًا بِهَا الْأَنْوَارُ
رَقَصَ الْقَضِيبُ بِهَا وَقَدْ شَرِبَ الشَّرَى وَشَدَا الْحَمَامُ وَصَفَّقَ التِّيَّارُ
غَنَاءَ الْحَفِّ عِطْفَهَا الْوَرَقُ النَّدَى وَالتَّفُّ فِي جَنَابَاتِهَا النُّوَارُ

فَتَطَلَّعَتْ فِي كُلِّ مَوْقِعٍ لِحِظَةٍ مِنْ كُلِّ غُصْنٍ صَفْحَةً وَعِذَارُ

ومثل هذا الجو نجده في وصف هذه الأراكة الحسنة التي ضربت ظلها فوق هذا الجمع الطروب بجوار جدول نثرت عليه الأزهار ودارت حول ضفافه كؤوس خمر عروس فاجتمعت في هذه الروضة فتنة الطبيعة ونشوة الطرب :

وَأَرَاكَةَ ضَرَبَتْ سِهَاءً فَوْقَنَا تَنْدَى ، وَأَفْلَاكُ الْكُؤُوسِ تُدَارُ
حَفَّتْ بِدَوَحَتِهَا مَجْرَةً جَدُولٍ نَثَرَتْ عَلَيْهِ نَجُومَهَا الْأَزْهَارُ
وَكَأَنَّهَا وَكَأَنَّ جَدُولَ مَائِهَا حَسَنَاءُ شُدَّ بِخَصَرِهَا زُنَارُ
زَفَّ الزَّجَاجُ بِهَا عُرُوسَ مُدَامَةٍ تُجَلَّى وَنُورَ الْغُصُونِ نِشَارُ
فِي رَوْضَةٍ جُنْحُ الدَّجَى ظِلٌّ بِهَا وَتَجَسَّمَتْ نُورًا بِهَا الْأَنْوَارُ
غَنَاءٌ يَنْشُرُ وَشِيَهَ الْبِرَّازُ لِي فِيهَا وَيَفْتُقُ مِسْكُهُ الْعِطَارُ
قَامَ الْغَنَاءُ بِهَا وَقَدْ نَضَجَ النَّدَى وَجَهَ الثَّرَى وَاسْتَيْقِظَ النُّورُ
وَالْمَاءُ مِنْ حَلَى الْعَبَابِ مُقَلَّدُ زَرَّتْ عَلَيْهِ جَيُوبُهَا الْأَشْجَارُ

وتسهوى الشاعر شجرة نارنج مثمرة فيصفها فإذا بها في حلة بهية ، وإذا الأوصاف الحسية تندمج بما يبعث فيها من حركة وحياة ، وإذا الطبيعة التي تحيط بها مرحة مغردة ، يخاطب فيها الطير ، وليس علينا بعد من عذر إذا لم نمل طرباً في أفياء هذا الدوح الظليل الرطيب :

أَلَا أَفْصَحَ الطَّيْرُ حَتَّى خَطَبَ وَخَفَّ لَهُ الْغُصْنُ حَتَّى اضْطَرَبَ
فَعَمِلَ طَرِبًا بَيْنَ ظِلِّ هَفَا رَطِيبٍ وَمَاءٍ هُنَاكَ انْتَشَبَ
وَجُلَّ فِي الْحَدِيقَةِ أُخْتِ الْمُنَى وَدِنَ بِالْمُدَامَةِ أُمُّ الطَّرِبِ

وحاملة من بناتِ القَنَا أُمَالِيدَ تحملُ خُضْرَ العَذْبِ
تنوبُ مُورَقَةً عن عِذارٍ وتَضْحَكُ زَاهِرَةً عن شَنْبِ
وتَنْدَى بها في مَهَبِّ الصَّبَا زبرجدةٌ أَثْمَرَتْ بِالذَّهَبِ
تُفَاوِحُ أَنْفَاسَهَا تَارَةً وطوراً تغازلها من كَثَبِ
فتبسمُ في حالة عن رِضا وتنظر آوَنَةً عن غَضَبِ

٣- هذه الحياة التي شعت في الأمثلة السابقة تَسِيمُ أكثر أوصاف الطبيعة عند ابن خفاجة . فهو يشخصها ويرى في جمالها جمال المرأة ويصورها على نحو إنساني تملؤه الحركة والنشاط . ولهذا التشخيص أمثلة كثيرة في شعره ، فلنسمعه يصف شجرة منورة :

يا رَبَّ مائِسةٍ المعاطفِ تَزْدَهِي من كل غُصْنٍ خافقٍ بوشاح
مهتزةٍ يرتجُ من أعطافها ما شئتَ من كَفَلٍ بموجِ رَدَاح
نفضتْ ذوائِبها الرياحُ عَشِيَةً فتملكتُها هِزَّةُ المِرتاح
حطَّ الربيعُ قناعاتها عن مَفْرِقِ شَمَطٍ كما ترتدُّ كَأْسُ الرِاح
لَفَاءٌ حاك لها الغمامُ مُلَاءَةً لبستُها حسناً قميصَ صَبَاح
نَضَحَ النَّدَى نَوَارَهَا فكأنما مسحتْ معاطِفها يمينُ سَمَاح
ولوى الخليجُ هناك صفحةً مُعْرِضٍ لثمتْ سِوَالِفُهَا ثغورُ أَقَاح

٤- وفتنة الشاعر هي على الأغلب في الرياض والزهور ولهذا لقب بـ « الجَنَان » ، ويعتمد على التشخيص - كما رأينا - والتشبيه بمحاسن المرأة في إظهار محاسن

روضياته ، وقد يقف عند بعض الجزئيات فيها ، ولكن كثيراً ما تظهر روضياته في إطار من اللهو على شكل نزعات في رحاب الطبيعة التي يبدع في تجسيمها كقوله :

سَقِيًّا لِيَوْمٍ قَدْ أَنْخَتُ بِسِرْحَةٍ رِيًّا تَلَاعِبَهَا الشَّمَالُ فَتَلَعَبُ
سَكْرَى يُغْنِيهَا الْحَمَامُ فَتَنْثَنِي طَرَبًا وَيَسْقِيهَا الْغَمَامُ فَتَشْرَبُ
يَلْهُو فَتُرْفَعُ لِلشَّبِيبةِ رَايَةً فِيهِ وَيَطْلُعُ لِلْبَهَارَةِ كَوَكَبُ
وَالرَّوْضُ وَجْهٌ أَزْهَرُ وَالظَّلُّ فَرْعُ أَسْوَدُ وَالْمَاءُ ثَغْرُ أَشْنَبُ
فِي حَيْثُ أَطْرَبْنَا الْحَمَامُ عَشِيَّةً فَشَدَا يُغْنِينَا الْحَمَامُ الْمَطْرَبُ
وَاهْتَزَّ عِطْفُ الْغَصْنِ فِي طَرَبِنَا وَافْتَرَّ عَنْ ثَغْرِ الْهَلَالِ الْمَغْرِبُ
فَكَأَنَّهُ وَالْحَسَنُ مُقْتَرَنُ بِهِ طَوَّقُ عَلَى بُرْدِ الْغَمَامَةِ مُذْهَبُ
فِي فَتْيَةٍ تَسْرَى فَيَنْصَدِعُ الدُّجَى عَنْهَا وَتَنْزِلُ بِالْجَدِيبِ فَيَخْصَبُ
كُرُمُوًّا فَلَا غَيْثُ السَّمَاحَةِ مُخْلَفُ يَوْمًا وَلَا بَرَقُ اللَّطَافَةِ خُلْبُ
مِنْ كُلِّ أَزْهَرَ لِلنَّعِيمِ بِوَجْهِهِ مَاءٌ يَرْقِرُقُهُ الشَّبَابُ فَيَسْكُبُ

على أن روضياته تتشابه فهي محصورة في إطار واحد تمثله الحديقة بما فيها من أشجار وجداول وأزهار وظلال وارقة وحمام تتداعى ونسبات عليلة ونداى يشربون ويغنون ويطربون .

٥ - وقد وصف ابن خفاجة أيضاً الطبيعة الحية كالفرس والذئب وله في وصف الفرس أبيات تراءى فيها البراعة والجلدة في التصوير فيقول :

وَمُطَهَّمٌ شَرِيقِ الْأَدِيمِ كَأَنَّمَا أَلِفَتْ مَعَاظِفُهُ النَّجِيعَ خَضَابَا
طَرِبُ إِذَا غَنَّى الْحَسَامُ مَمَزَّقُ ثَوْبَ الْعَجَاجَةِ جِيئَةً وَذَهَابَا

قَدَحَتْ يَدُ الْهَيْجَاءِ مِنْهُ بَارِقًا مَتْلَهَبًا يُزْجِي الْقَتَامَ سَحَابَا
وَرَمَى الْحِفَافُ بِهِ شَيَاطِينَ الْعَدَى فَاَنْقَضَ فِي لَيْلِ الْغُبَارِ شِهَابَا
بَسَامُ ثَغْرِ الْحَلَى تَحْسِبُ أَنَّهُ كَأْسُ أَثَارِ بِهِ الْمِزَاجُ حَبَابَا

٦ - يتبين مما تقدم أن ابن خفاجة يمثل نهضة شعر الطبيعة في الأندلس ، وقد استطاع أن يصور طبيعتها الجميلة والحياة اللاهية في أحضانها ، وكان في وصفه مصوراً بصرياً بارعاً يعتمد على دقة ملاحظته إلى جانب قوة خياله . وقد يكون قد أغرق في الصنعة والمحسنات البديعية ومع ذلك استطاع ألا يجعلنا نشعر بثقلها إلا في بعض أوصافه . على أن الصنعة عنده أداة للتجميل وقد امتزجت بقوة خياله وأناقته ألفاظه وترف صورته فجاءت مقبولة كقوله في وصف نهر :

لِلَّهِ نَهْرٌ سَالَ فِي بَطْحَاءٍ أَشْهَى وَرُودًا مِنْ لَمَى الْحَسَنَاءِ
مَتَعَطَّفٌ مِثْلَ السَّوَارِ كَأَنَّهُ وَالزَّهْرُ يَكْنُفُهُ مَجْرٌ سَمَاءِ
قَدْ رَقَّ حَتَّى ظَنَّ قُرْصًا مُفْرَعًا مِنْ فَضَةٍ فِي بُرْدَةٍ خَضْرَاءِ
وَعَدَتْ تَحْفُ بِهِ الْغُصُونُ كَأَنَّهُا هُدْبٌ تَحْفُ بِمَقْلَةٍ زَرْقَاءِ
وَالْمَاءُ أَسْرَعَ جَرِيَهُ مُتَحَدِّراً مُتَلَوِّياً كَالْحِيَةِ الرَّقْطَاءِ
وَالرِّيحُ تَعَبَتْ بِالْغُصُونِ وَقَدْ جَرَى ذَهَبُ الْأَصِيلِ عَلَى لَجِينِ الْمَاءِ

وإبن خفاجة من الشعراء الذين اتصلوا بالطبيعة كما أشرنا ، ولكن هذا الاتصال لم يبلغ مبلغ الامتزاج الكلي بها إلا في بعض قصائده ولا سيما قصيدته في وصف الجبل ، وتبقى الطبيعة عنده صورة لاعتدال القدر واهتزاز الحصر وابتسام الثغر ، وهي في صورها ترضى لذة الحس وقلما تبعث في النفس لذة الروح . وشأن شاعرنا فيها كشأن باقي أعلام شعراء الطبيعة في أدبنا العربي ، فهم لم يلجئوا في وصفها إلى

إدراك حس الطبيعة كما أدركه الشعراء الغربيون وإنما بقيت الطبيعة عندهم متاعاً للعين وفناً وصفيّاً تجمله الزخارف والألوان ولا تتشابه فيه العواطف والأحزان إلا نادراً .

* * *

هذه أسماء بارزة في الشعر الأندلسي أتينا على ذكرها لنبين جانباً هاماً من صفات هذا الشعر . على أن ثمة شعراء آخرين لا يقلون عن هؤلاء شأننا لم نأت على ذكرهم لضيق المجال فلترجع أخبارهم في مظانها . ولكني يتم لنا فهم صفات هذا الشعر لا بد من استعراض خصائص مختلف أغراضه ، فما هي هذه الخصائص التي اتصفت بها أغراض الشعر الأندلسي ؟

الفصل الرابع

أغراض الشعر الأندلسي

نظم شعراء الأندلس الشعر في مختلف الأغراض ، ولم يشذوا ، بوجه عام ، عن القواعد والأساليب التي اتبعها المشارقة في أشعارهم .

المدح :

فقد حافظ المدح على الأسلوب القديم وكان الشعراء يعنون بالاستهلال وحسن التخلص ، ورعاً جعلوا صدور مدائحهم وصفاً للخمر أو للطبيعة أو للبلد الذي نشأ فيه الشاعر أو للمرأة التي أحبها ، وقلما شذ بعضهم عن هذا السبيل ، كما وصفوا الفلاة والناقة والجواد ووقفوا على الديار والأطلال ولكنهم لم يطيلوا وصفهم هذا وبستفيضوا به . ولم يغرقوا في استعمال الغريب إلا ما كان من ابن هاني فقد تعدد الغريب وأكثر المغالاة محاولاً تقليد المتنبي . وكانت مدائحهم محشوة بالتملق والاستجداء على طريقة المشارقة .

الثناء :

وكذلك في الثناء لم يختلف الأندلسيون عن المشارقة من حيث التفجع على الميت ووصف المصيبة وتعداد المناقب ، فكانت معانيهم وأساليبهم متشابهة . وكانوا يستهلون مراثيهم بالحكم كالمشارقة ، إلا أن حكمهم كانت ساذجة لا عمق فيها ، تركز على الشكوى من الأيام .

وكان رثاؤهم للممالك الزائلة أكثر روعة أحياناً من رثاء شعراء المشرق ، فقد أشجاهم أن يروا ديارهم تسقط بلداً إثر بلد في أيدي الغزاة من المكتسحين ، فبكوا بكاء من يبكي على فراق وطن أحبه وفتن بجمال طبيعته ورخاء أيامه . فبكى ابن اللبانة دولة بني عباد . وابن عبدون دولة بني الأفطس عندما أزالهما

ابن تاشفين ، وبكى أبو البقاء الرندى الأندلس بأسرها بعد أن استردها النصارى ،
وقد بدت لوعة صادقة في هذه القصائد الثلاث لا سيما في قصيدة أبى البقاء التى
يقول فيها :

لكلِّ شىءٍ إذا ما تَمَّ نُقْصَانُ فلا يُغَرِّ بِطِيبِ العِيشِ إنسانُ
هى الأمورُ كما شاهدتها دُولُ مَنْ سَرَّهَ زَمَنُ ساءَتْهَ أَزْمانُ
وهذه الدارُ لا تُبْقِي على أَحَدٍ ولا يَدُومُ على حالٍ لها شَانُ
أَيْنَ الملوِكُ ذِوِوالتيجانِ مِنْ يَمَنِ وأَيْنَ مِنْهُمْ أَكاليلُ وتيجانُ
أتى على الكلِّ أمرٌ لا مَرَدٍّ له حتى قَضَوْا فكَانَ القومَ ما كانوا
وصارَ ما كانَ مِنْ مُلْكٍ وَمِنْ مَلِكٍ كما حَكَى عن خيالِ الطيفِ وَسَنانٍ^(١)

ويتصل بالثناء الشكوى والاستعطاف وقد امتاز بهذا الغرض الملوك والأمراء
لكثرة ما نالهم من المحن والنكبات فذلُّوا بعد عز وهبطوا بعد رفعة ، وقد رأينا نوعاً من
هذه الشكوى في شعر المعتمد بن عباد بعد أن نُكِبَ ونفى إلى أغمات في إفريقية .

الهجاء :

أما الهجاء فلم تقم له سوق رائجة في الأندلس ، ولا سيما الهجاء السياسى ،
لقلة الأحزاب السياسية . وقد ظهر في عهد الأمراء هجاء بين المضرية والبيمانية
ولكن لم يحفظ لنا منه شىء جدير بالاهتمام . وقد قام بعض الشعراء بهجو الفرنجة
في أثناء الحروب معهم ، وهجو البرابرة عندما استفحل أمرهم ، وكانت الغاية من
الهجاء التكسب والمجون ، فلم يكن هناك هجاء سياسى بالمعنى المعروف عند المشاركة
كالدفاع عن العرب وذم الشعوبية ، لأن الشعوبية لم يكن لها شأن في الأندلس .
وهذا الهجاء العابت كان مشحوناً بالإقذاع والفحش . وعلى الجملة فإن الشعراء الذين

(١) اقرأ تمام القصيدة في النسخ ج ٦ ص ٢٣٢ (طبعة محمد محى الدين عبد الحميد) .

مارسوا هذا الغرض لم يبلغوا فيه شأن المشاركة . وأشهر من عُرِف بهذا الفن منهم أبو بكر المخزومي الأعمى ، وهو من شعراء المائة الخامسة للهجرة ، وبينه وبين نزهون بنت القلاعي الغرناطية معابثات فاحشة . قال فيها المخزومي :

على وجه نزهونٍ من الحُسْنِ مِسْحَةٌ وتحت الثياب العارُ لو كانَ بادِيا
قواصِدُ نزهونٍ تواركُ غيرها ومن قَصَدَ البحرَ استقلَّ السواقيا

فأجابته :

إِنْ كَانَ مَا قَلْتَ حَقًّا مِنْ بَعْدِ عَهْدِ كَرِيمٍ
فَصَارَ ذِكْرِي ذَمِيًّا يُغْزَى إِلَى كُلِّ لَوْمٍ
وَصِرْتُ أَقْبَحَ شَيْءٍ فِي صُورَةِ الْمَخْزُومِ

الحكمة :

وكذلك الأمر في الحكمة ، فقد ذكرنا أن الشعراء الأندلسيين لم ينصرفوا إلى حياة التأمل ، لذلك بدت حكمتهم ساذجة بعيدة عن العمق . وكذلك الفلسفة لم تنتشر في تلك الربوع منذ دخول العرب إليها ، بل تأخر ظهور الفلاسفة إلى أواخر القرن الخامس ، في عصر المرابطين والموحدين ، فقد كان هذا العصر عصر نهضة في الفلسفة والتأليف ، فيه ظهر ابن باجه وابن رشد وابن طفيل صاحب رسالة «حي بن يقظان» وابن ميمون من الفلاسفة وابن خاقان وابن بشكوال والإدريسي وابن جُبَيْر وابن بسام من المؤلفين ، ولولا ظهور ابن حزم قبل رجال هذه الطبقة لقلنا إن هذا العصر احتكر العلم والفلسفة . وسبب تأخر نهضة الفلسفة في الأندلس ، واقتصارها على فئة محدودة من المختصين ما كان للفقهاء من سلطان على ملوك الأندلس فإنهم ضيقوا حرية التفكير ، وكفّروا كل متفلسف وأفنوا بنفيه وإحراق كتبه ، وكانت العامة تجارى أهواء الفقهاء فيضطر السلطان تجاه ثوراتهم إلى استرضائهم بإتلاف كتب الفلاسفة كما فعل الحاجب المنصور ، وبمعاقبة المهتمين

كما فعل صاحب إشبيلية بابت هاني إذ نصح له بالابتعاد عن المدينة كما ذكرنا .
 وقد قلنا إن ابن هاني كان أكثر الشعراء الأندلسيين اهتماماً بالحكمة في
 شعره محاولاً بذلك تقليد المتنبي ولكنه بقي مقصراً عنه أشواطاً . وحكمته تدور حول
 شكوى الدهر والذمير من الدنيا ، فكانت كحكمة غيره من الشعراء مبتذلة
 بعيدة عن النضج .

فمن قوله في قصيدة يرثي بها ولداً لإبراهيم بن جعفر بن علي أحد ممدوحيه :

وَهَبَ الدَّهْرُ نَفِيساً فَاسْتَرَدَّ رُبَّمَا جَادَ بَخِيلٌ فَحَسَدُ
 كُلَّمَا أُعْطِيَ فَوْقَى حَاجَةً بِيَدٍ شَيْئاً تَلَقَّاهُ بِيَدٍ
 خَابَ مَنْ يَرْجُو زَمَاناً دَائِماً تُعْرِفُ الْبِأْسَاءُ مِنْهُ وَالنَّكَدُ
 فَإِذَا مَا كَدَّرَ الْعَيْشَ نَمًا وَإِذَا مَا طَيَّبَ الزَّادَ نَفَدُ
 فَلَقَدْ أَذْكَرَ مَنْ كَانَ سَهَا وَلَقَدْ نَبَّهَ مَنْ كَانَ رَقَدُ

وقال في قصيدة في الرثاء :

إِنَّا فِي آمَالٍ أَنْفَسِنَا طُولُ فِي أَعْمَارِنَا قِصَرُ
 لَنَرَى بِأَعْيُنِنَا مَصَارِعَنَا لَوْ كَانَتْ الْأَلْبَابُ تَعْتَبِرُ
 مِمَّا دَهَانَا أَنَّ حَاضِرَنَا أَجْفَانُنَا وَالْغَائِبُ الْفِكْرُ
 وَإِذَا تَدَبَّرْنَا جَوَارِحَنَا فَأَكْلُهُنَّ الْعَيْنُ وَالْبَصَرُ
 لَوْ كَانَ لِلْأَلْبَابِ مُمْتَحِنٌ مَا عُدَّ مِنْهَا السَّمْعُ وَالْبَصَرُ
 أَيْ الْحَيَاةُ أَلْدُ عَيْشَتَهَا مِنْ بَعْدِ عِلْمِي أَنِّي بَشَرُ
 خَرَسْتُ لِعَمْرِ اللَّهِ أَلْسُنَا لَمَّا تَكَلَّمْتُ فَوْقَنَا الْقَدَرُ

الزهد :

وإذا كانت الحكمة ضئيلة جافة في الشعر الأندلسي ، فلم يكن الزهد كذلك . وقد كان لسلطة الفقهاء تأثير في دفع الناس إلى التعصب الديني والتظاهر بالعبادة والعزوف عن الدنيا ومباهجها ، حتى كثُر المتزهدون وأصبحت صناعة الزهد شيئاً مرغوباً . فكان الشعراء ينظمونه بدافع ديني أحياناً وبدافع تقليدي أحياناً آخر . على أن من الشعراء من نظمهم وقد شعر حقاً بندمه وأدرك غرور الدنيا فأخذ يذكر ذنوبه طالباً مرضاة الله وعفوه . وهذه ظاهرة طبيعية لكل إنسان انغمس في الملذات إذ لا بد له من ساعات ندم يخلد فيها إلى نفسه ، ومثال أبي نواس شاهد على ذلك في توبته الأخيرة .

على أن كثرة الحروب والفتن وتقلب الأحوال أثرت في نفوس الشعراء فالتوا إلى الطعن بغدر الأيام وغرور الزمن ، وقادهم هذا الموقف إلى لون من الشعر الشاكي الذي انتهى بهم إلى الزهد والتقصيف وذكر الله . فلنسمع ابن عبد ربه وهو يصف الدنيا بأنها دار للفجائع والمصائب :

أَلَا إِنَّمَا الدُّنْيَا غَضَارَةٌ أَيْكَةً إِذَا اخْضَرَّ مِنْهَا جَانِبٌ جَفَّ جَانِبٌ
هِيَ الدَّارُ مَا الْآمَالُ إِلَّا فُجَائِعٌ عَلَيْهَا ، وَلَا اللَّذَاتُ إِلَّا مُصَائِبٌ
فَكَمْ سَخَّنتُ بِالْأَمْسِ عَيْنًا قَرِيرَةً وَقَرَّتْ عَيْنُونًا ، دَمْعُهَا الْيَوْمَ سَاكِبٌ
فَلَا تَكْتَحِلْ عَيْنَاكَ مِنْهَا بِعَبْرَةٍ عَلَى ذَاهِبٍ مِنْهَا ، فَإِنَّكَ ذَاهِبٌ

ولنسمع ابن حمديس يبكي ذنوبه ، فنجد في هذا البكاء برماً بالحياة ونظرة خاشعة إلى الله تتمثل فيها سمات الشعر الزهدي بشكل عام :

يَا ذُنُوبِي ثَقَلْتِ وَاللَّهِ ظَهْرِي بَانَ عُدْرِي فَكَيْفَ يُقْبَلُ عُدْرِي
كَلِمَا تُبْتُ سَاعَةً عَدْتُ أُخْرَى لَضُرُوبٍ مِنْ سُوءٍ فَعَلِي وَهَجْرِي

دَبَّ مَوْتُ السَّكُونِ فِي حَرَكَاتِي وَخَبَا فِي رَمَادِهِ حُرُّ جَمْرِي
 يَا رَفِيقًا بَعْدِهِ وَمَحِيطًا عِلْمُهُ بِاخْتِلَافِ سِرِّي وَجَهْرِي
 مِلْ بِقَلْبِي إِلَى صِلَاحِ فَسَادِي مِنْهُ وَاجْبُرْ بِرَأْفَةٍ مِنْكَ كَسْرِي
 وَأَجِرْنِي بِمَا جَنَاهُ لِسَانِي وَتَنَاجَتْ بِهِ وَسَاوُسُ فِكْرِي

التصوف :

ويتصل بالزهد التصوف ، وقد ظهر بين الشعراء الأندلسيين من نظموا شعراً صوفياً رائعاً كابن عربي شيخ المتصوفين . فقد ولد بمرسية سنة ٥٦٠ هـ وانتقل إلى إشبيلية ثم سافر إلى الشرق ومات في دمشق سنة ٦٣٨ هـ ، وله قصائد وموشحات صوفية سائرة . وكان هناك اتصال بين متصوفة الماشقة ومتصوفة المغاربة من جراء تبادل الرحلات والتنقل بين الغرب والشرق ، فلمسنا لهذه وحدة في طرائقهم وأساليبهم .

الشعر الحماسي :

وإذا كان الشعر الرهدي قد دعت إليه ظروف الشعراء وواقعهم فلم يكن الأمر كذلك فيما يختص بشعر الحماسة . فقد كان شعراء الأندلس بعيدين عن أن يعيشوا عيشة الأبطال والفرسان ، لذلك اقتصر شعرهم الحماسي على مدح الملوك ووصف معاركهم الحربية ، وكانوا بذلك شعراء مصورين لا شعراء مغاوير يعبرون عما يجيش في نفوسهم ، ولهذا فقد كان المدح غاية الشعر الحماسي ولم يرتفع من أجل هذا شأنه عندهم ، وبقى الدافع إليه التقليد لا العاطفة . وقد كنا نأمل أن تنفخ فيها غارات الأعداء روح الحماسة ولكن أكثرهم ، ولا سيما شعراء ملوك الطوائف ، قد فضلوا أن يخلدوا إلى شعر الضعف والشكوى والبكاء ، ولعل نفسية الشاعر الأندلسي الوداعة المستسلمة لأحلام الطبيعة والرخاء تلائم هذا النوع من الشعر أكثر من ملاءمتها للشعر الصاحب القوى الذي امتاز به شعراء المشرق ،

ولا شك أن للظروف الإقليمية أثراً في هذا الاتجاه النفسى الذى أضعف فيه روح الحماسة وقلل من حدة البداوة ، فرأينا الفخر قد قل في شعرهم ، وعندما يظهر نراه يصطبغ في أكثر الأحيان بصبغة دينية لتعلق الشاعر الأندلسى بإسلامه ولما بينه وبين جيرانه النصارى من العداء . أما صفات البطولة والشجاعة فكانت تأتي على شفاههم متكلفة مصطنعة لفقدان الشعور الصميم بأنهم يتحلون بها كما في حماسيات ابن وهبون من شعراء المعتمد بن عباد وقد توفى هذا الشاعر ، كما يظهر ، في النصف الأول من القرن السادس للهجرة .

الوصف :

أما الشعر الوصفى فقد ظهر في أكثر أغراض الشعر ، وأظهر الأندلسيون فيه عبقرية نادرة لا سيما عندما تعرضوا لوصف الطبيعة وجمال العمران ومحالسى الأنس والطرب . نعم لم يظهر الوصف في الشعر العربى كغرض مستقل وإنما رأيناه خلال المدح والغزل وغيرهما من الأغراض ، ولكننا نستطيع أن نقول إن اهتمام الأندلسيين بالوصف كان كبيراً . وعلى الرغم من امتزاجه في أكثر الأغراض الشعرية فقد استطاع الأندلسيون أن يفتنوا به ويمنحوه بعض الاستقلال ، فهناك شعر وصفى لجميع مظاهر الحياة الحضرية الهائلة من وصف لمجالس اللهو والغناء والرقص والشراب وآلته والصيد وأدواته والنساء وأحوالهن ، وهناك شعر وصفى للطبيعة ولظواهر العمران والقصور كما سنرى ، وهناك شعر وصفى للحروب والسفن ، وغير ذلك مما يتناول الحياة برخائها وحربها ، بطبيعتها الجميلة التى من بها الله ، وبقصورها وساحاتها المرمرية التى زخرقتها يد الإنسان .

ولا عجب في أن يكون لوصف المعارك نصيب وافر من الشعر الأندلسى فإن الحروب بين المسلمين وأعدائهم الفرنجة لم تنقطع ، ولم تبدأ حرب إلا لتشن أخرى ، لهذا حفلت مدائح الملوك والأمراء بذكر المعارك والجيوش والحراقات ، وقد رأينا نموذجاً من هذا الصنف في قصيدة ابن هانئ الأندلسى الذى يمدح بها المعز لدين الله الفاطمى ويصف حراقاته .

الغزل - الأحمر :

وإذا كانت الطبيعة لها المكان الأول بين أغراض الشعر الأندلسي ، فالغزل كان ينساب على شفاه الشعراء ويدعو إليه كل ما في الأندلس من طبيعة جميلة وحياة حضرية ناعمة ومجالس أنس ورخاء وخمر وغناء ، وقد ذكرنا لكم سابقاً بعض المشاهد عن الحياة اللاهية التي كان يحياها الأندلسيون ، كما أن أسواق النخاسة التي كان يباع فيها الجوارى والغلمان قد شجعت هذه الحياة اللاهية التي وجد الغزل فيها مرتعاً سهلاً. ومن الشعراء من أحب حباً صادقاً ومنهم من تمتع بوهم الحب ولها ، وقد استطاع الشاعر الأندلسي أن يرسم حبه ووهو بأبيات تعد من الشعر الجيد لأنها استطاعت أن ترسم الأجواء وتعبر عن خوالج النفوس . إلا أن أكثر غزلهم كان مقيداً بالتقاليد والتكلف ، ولم يستطيعوا أن يخلقوا في أجواء جديدة إلا عندما استطاعوا أن يهجروا الأسلوب القديم كذكر البادية والأهوال في سبيل الوصول إلى الحبيب ويتحدثوا عن حبه ومجالسهم وخلواتهم في كثير من الانطلاق . إلا أن هذا الحديث قد قادهم إلى حرية مؤذية أحياناً ، فيها الكثير من الفحش والتهتك ، وقد بلغ الغزل في زمن طوائف الملوك حالة مزرية في انحطاط ألفاظه ومعانيه وعبر بذلك عن حياة العصر المتهتك .

وقد كانت أوصافهم مادية تقليدية فتحدثوا عن سهام الألفاظ وخمر الرضاب وليل الشعر ونرجس العيون وغير ذلك من الأوصاف المألوفة فظهر تقليدهم ولم يجددوا المعاني ، فالحب ذليل والمعشوقة لا ترحم ، ومن هنا نشأ عندهم ما يسمى بالحب المعذب الذي تفنن الشعراء في وصفه فرحين بالتدليل للحبيب والخضوع له ، وقبلما حدثنا الشاعر عن أفراح الغرام فهو إذاً في ألم دائم . وقد عقد هنري به رس^(١) فصلاً قيماً عن الغزل في الشعر الأندلسي بين فيه معانيه الأساسية وخصائصه ندعوكم إلى الرجوع إليه ، كما ندعوكم إلى الرجوع إلى الفصل الذي يتحدث فيه هذا المؤلف عن المعاني التي ألهمتها الطبيعة والعمران فهو فصل قيم أيضاً . ولعل

(١) انظر كتابه الذي أشرنا إليه سابقاً .

أجمل ما في الغزل الأندلسي هو هذه النغمة المحزنة التي ييكي فيها الشاعر أيام سعادته بالقرب من الحبيب ويحن إلى أيامه الآفلة التي قضى الدهر أن تكون ذكرى لحب مقيم ، وهذه النغمة هي التي منحت قصيدة ابن زيدون في صاحبته ولاّدة هذه الشهرة حتى تناقلتها كتب الأدب ، ففي هذه القصيدة التي مطلعها :

أُضْحَى التَّنَائِي بِدِيلًا مِنْ تَدَانِينَا وَنَابَ عَنْ طَيْبِ لُقْيَانَا تَجَافِينَا

لحن موسيقى ونجوى غرامية شاكية استطاع ابن زيدون أن يخلق بها في جو غزل جميل كما سنرى عند الكلام على هذه القصيدة بشيء من التفصيل .

هذا وقد بدت آثار البيئة على أشعار الأندلسيين الغزلية فشاع عندهم الغزل النصراني وذكر الكنائس والقساوسة والصلبان كغزل ابن الحداد في نُويرة النصرانية ، كما شاع عندهم التشبيب بالشعر الأشقر والعيون الزرق لكثرة ما كانوا يصيبون من مسبي فرنجة الشمال وهم شقرفي الغالب . وكانت تشبيهاهم مستمدة غالباً من الطبيعة كما ذكرنا ، ولكن كثيراً ما كان يظهر عليها التكلف والصنعة ، وغير أشعارهم الغزلية ما كانت مجردة عن هذا التكلف كما في قصيدة ابن زيدون السابقة الذكر .

• • •

ولنقل أخيراً إن هذا الشعر في أغراضه المتعددة لا يختلف كثيراً عن الشعر الشرقي بل لعله لم يكن في مرتبته من حيث المعاني والصور الفكرية ، وقد نلاحظ أنه قد كبّل بالصنعة فأسفّ أحياناً ولم يستطع أن يفلت من هذا الإسفاف إلا عندما أطلق الشاعر لقلبه حرية القول غير عابئ بقيود البيان والبديع . على أن للشعر الأندلسي ميزة هي هذه الرقة الممزوجة بالجزالة وقد شعر الأندلسيون بهذه الظاهرة في أدهم حين قال ابن بسام : « وذهب كلامهم بين رقة الهواء وجزالة الصخرة الصّماء » .

وإذا كانت هذه الأغراض الشعرية التي أتينا على ذكرها قد استطاعت أن تصور لنا ، على أنماط مختلفة من الجودة ، بعض صفات الشعر في الأندلس ؛

فإن وصف الطبيعة ، وهو أبداع أشعارهم ، قد عرف هناك ازدهاره ووجد في سماء الأندلس شمسها ونهاره . وقد رأينا كيف كانت الطبيعة مثار قرائح الشعراء الأندلسيين أمثال ابن حمديس وابن خفاجة وغيرهما . فجدير بنا أن نقف عند هذا الشعر - شعر الطبيعة - وقفة نجتلي فيها مزاياه ونوضح أسرار جماله وخفاياه .

وسنوجز الكلام ، في الفصل الآتي ، على مفهوم هذا الشعر ونشأته في أدبنا العربي ، ثم نعرض على ذكر بواعثه وخصائصه في أدبنا الأندلسي ، ونورد في نهاية الحديث بعض المختارات الشعرية لأعلام شعر الطبيعة في الأندلس .

الفصل الخامس

شعر الطبيعة

هام الإنسان بالطبيعة منذ أن فتح عينيه على محاسنها وتطلع بحب إلى جمال روضها ورونق سماءها . وقد وجد فيها الشاعر والكاتب ، منذ القديم ، مرتعاً لخيااله ومقيلاً لأفكاره . وكانت وحى من استلهمها ، تنشيه باهتزاز أزهارها وانسياب جداولها ، وتلألؤ ظلها ، وهدهود ظلها ، فيجود بالكلم الخالد واللوحة الناطقة .

و « شعر الطبيعة » تعبير جديد في أدبنا ، جاءنا من الآداب الغربية وكان له فيها أصوله وشعراؤه . وقد أطلقه النقاد الغربيون على الشعر الذى كان من أهم مظاهر الحركة الإبداعية الرومانسية Romantisme في أواخر القرن الثامن عشر . وقد وجد الشعراء الإبداعيون في الطبيعة ميداناً فسيحاً لحرية العمل ، وتربة خصبة لنمو العواطف الإنسانية ، وموضوعاً أكثر ملاءمة للأسلوب القوى الصريح . والطبيعة كما يفهمها « الرومانسيون » صديقة وفية يحبونها لما تمنحه من جمال لحسهم وهدهود لنفوسهم . فيستسلمون إليها ويشاطرونها المناجاة ويوحدون إليها بعواطفهم وآلامهم ، ويصورونها بقساوتها وجمالها . وكثيراً ما تكون ملجأً لنفوسهم التعبئة القلقة ، ولذا فهم يفرون إليها ناشدين بالقرب منها طهارة الحياة ونعيم السعادة مع من يحبون ويعشقون . وقد كان جان جاك روسو من أوائل الكتاب الذين غلوا الأدب الفرنسى بهذا الحس الطبيعى العميق .

على أن هذه الحركة كان لها جنود في الماضى ، فهناك الكثير من الآثار اليونانية التى تغنت بجمال الطبيعة ، وقد ظفرت الإلياذة والأوديسة بقسط جميل من هذا الفن . وفى الواقع أن شعر الطبيعة بمعناه العام لم يكن مقتصرأ على عصر دون آخر ، بل كان قسمة بين جميع العصور . إلا أنه ساد وعمقت فلسفته وتميز شعراؤه في الحركة الإبداعية .

شعر الطبيعة في الأدب العربي :

فما هو شعر الطبيعة في أدبنا العربي ؟ وعلى أى شكل قاله الشعراء ؟
عرف الشعرُ العربي القديمَ شعرَ الطبيعة على الشكل الذى أوحى به البيئة البدوية ، وقد تهيأ للشاعر الجاهلى من هذا الفن حظ وافر ، فأخذ يتأمل الطبيعة ويثبها آلامه ويفتن بها ويصورها تارة ببصره وأخرى بقلبه . ويقف على أطلال الديار فتثير شجونه ، وتعلك عليه الناقة والبعير والفرس فؤاده ، وتسهبه الصحراء بحيواناتها ورمالها وآلها واحاتها ونجومها وبرقها ومطرها . فالشعر الجاهلى مثل الحياة البدوية من هذه الناحية وصورها على النمط الذى مثله الشعر الرعوى في البيئة الغربية^(١)، فقد مثل هذا الشعر الرعوى الطبيعة بحيواناتها وطيورها وغاباتها وحقولها ، وبدا فيه الحب للحياة الريفية ، ولكنه لم يصدر في الجملة عن الملاحظة الذاتية والشعور بل عن التقليد والتخيل^(٢) .

وقد نحا شعر الطبيعة في فجره عند العرب هذا المنحى ، وبقي على الغالب صورة لما تراه العين أكثر من أن يكون مشاركة للعواطف التى توحى بها الطبيعة وانفعالا ذاتياً للشعور .

وقد تناول شعر الطبيعة في العربية ، كما تناول عند الغربيين ، الطبيعة الحية والطبيعة الصامتة ، ويقصد بالطبيعة الحية ما اشتملت عليه من أصناف الحيوان ما عدا الإنسان ، وبالطبيعة الصامتة مظاهرها ووجودها المتجسد في سهولها وبحارها وسماؤها وبواديها وحدائقها وحقولها وما إلى ذلك .

(١) الشعر الرعوى la poésie bucolique فن شعري وثيق الصلة بشعر الطبيعة la poésie de la nature ، وقد نما هذا الفن وازدهر في عصر النهضة مع الحركة الإنسانية . ولعل الشاعر الإيطالي بترارك من ساعد على نموه بشغفه بالطبيعة وإيوائه إلى الجبال والغابات على حين كان معاصره يمتدونها مواطن للشياطين . والقصيدة الرعوية مقطوعة غنائية حوارية قصيرة ذات طابع ريفي تمثل مناظر الطبيعة . وقد كان لرعاة اليونان القدماء حظ في نشأة هذه الأغاني ، وازدهر هذا الفن في إيطاليا في عصر النهضة ، وتقدم في فرنسا في القرن السادس عشر متأثراً برعفيات القرون الوسطى .

(٢) انظر « شعر الطبيعة في الأدب العربي » للدكتور سيد نوفل ص ٩ .

وقسم بعضهم الطبيعة الصامتة إلى طبيعة طبيعية وهى ما أشرنا إليه ، وطبيعة صناعية وهى التى عمل الإنسان فى تأليفها وتنسيقها كالقصور والبرك والزخارف المرمرية وما شابه ذلك .

والطبيعة الصامتة الطبيعية أكثر ملاءمة لمفهوم كلمة « الطبيعة » ، وأكثر إيحاء للحس الطبيعى . فهى التى تحدث فى النفس ذلك الحس الشعورى الذى ينبض بجمالها ، وما أصناف الحيوان فيها ومنشآت اليد البشرية إلا متممات منفصلة عن روح « الطبيعة » بمعناها الحقيقى . وقد يكون وصف العصفور على غصنه أكثر تجاوباً مع شعر الطبيعة من وصفه مجرداً عن الغصن والشجر والدوح والماء . وليس من صميم الطبيعة ، كفن شعرى ، أن ندمج فيها وصف الحمل والذئب والأسد وما شابهها ؛ إن هذا الوصف أقرب إلى فن الوصف منه إلى شعر الطبيعة الذى نحب أن نجد فيه خصائص مميزة تبدو فى هذا الحس الطبيعى والتجاوب الذاتى .

ولإذا كان قد درج بعض النقاد على هذا التقسيم فنحن نقبله كأمر واقع ولكننا لا نستطيع إلا أن نعرف شعر الطبيعة بقولنا :

هو الشعر الذى يمثل الطبيعة وبعض ما اشتملت عليه فى جو طبيعى يزيده جمالا خيال الشاعر ، وتمثل فيه نفسه المرهفة وحبها واستغراقه بمفاتها .

وكلما كان شعر الطبيعة معبراً عن هذه المشاركة وهذا الاستغراق ومصوراً جمال الطبيعة وفتنتها فى شتى مظاهرها كان هذا الشعر مزدهراً ومحققاً غرض موضوعه . والطبيعة فى الواقع معنى كلى يتعاون كل جزء من أجزائها على جعل هذا المعنى كائناً حياً خالداً يوحى لقلب الشاعر بالحب والجمال ويبعث فى نفسه شتى العواطف الإنسانية السامية .

فكيف وصف العرب الطبيعة إذآ بعد أن قدمنا هذا التعريف ؟

لقد وصف الشاعر العربى منذ القديم الطبيعة وأحبها ولم تكن غريبة عنه ، ولكنها لم تتميز حينذاك كفن شعرى قائم بذاته ، وقد كان أكثر شعراء الجاهلية يصورون الطبيعة بقسميها الصامت والحي ، وكانوا على الغالب ينظرون إليها نظرة

مصور ومع هذا فقد بدا على وصفهم الشغف بها وبظواهرها ؛ فهذا امرؤ القيس لم يحمد أمام مشاهد الطبيعة فوصف الليل وشبهه بموج البحر ووصف طوله فإذا به لا يتزحزح كأن نجومه شدت بحال متينة إلى جبل يذبل ، ووصف البرق وجعل لمعانه كلمع اليدين تتحركان بسرعة أو كمصباح راهب ، ووصف الغيث وبدت فتنة الشاعر به ، ثم وقف على الأطلال وبكاها ، وبكاء الأطلال مظهر من مظاهر وصف الطبيعة الذي يتجلى فيه البث والشكوى والتجاوب مع البيئة الطبيعية .

وامرؤ القيس وصف أيضاً الطبيعة الحية فصور فرسه على شكل جدير بالإعجاب ، ووصف الناقة وحمار الوحش والظلم والنعامة وكان وصفه يدل على التفنن والاستقصاء .

ومن هنا يبدو أن وصف الطبيعة عند شعراء الجاهلية كان تعبيراً عن البيئة البدوية ببساطة وصدق .

ولما انتقل العرب من البداوة إلى الحضارة وعرفوا نعيم الحياة وترف القصور وجمال الرياض ، تطور شعر الطبيعة ، ولكنه لم يستطع أيضاً أن يستقل كفن خاص وبقي هو والوصف ممزوجاً بأغراض أخرى كالغزل والمدح والطرده والخمر . وكانت الطبيعة التي وصفها الشعراء آنذاك تختلف عن طبيعة البدوى في عناصرها ومقوماتها .

وقد كان الحديث عن الطبيعة في العصور العباسية تعبيراً عن بعض مظاهر هذه الحياة الجديدة اللاهية التي عرفتها هذه العصور ووصفاً لهذه الطبيعة الندية التي فتن بها الشعراء وغير الشعراء .

على أن شعراء العصور العباسية ، على رغم وصفهم لمفاتيح الطبيعة بدقة وإعجاب ، لم يكونوا يستطيعوا الاندماج بها والتعبير عن خفايا شعورهم نحوها . لذلك نزعوا إلى الوصف المادى والعبث اللفظى متأثرين بتيار التألق والصنعة الذي ساد آنذاك ثم اشتدت وطأته في عصور الانحطاط حتى قضى على الروح العفوية في الشعر .

نقول هذا ونحن نعلم أن بعض الفحول في هذه الفترة قد استطاعوا أن يضيفوا

إلى أوصافهم المادية للطبيعة حساً وذوقاً جعلهم يأتلفون معها ويستغرقون في نشوة جمالها ويبادلونها العاطفة بعاطفة والحب بحب .

فهذا أبو تمام والبحرّى وابن الرومي يقدمون لنا عن الطبيعة صوراً ذات نشاط وحياة ومباهج فاتنة . فلنسمع ابن الرومي يصف غروب الشمس وصفاً تراءى فيه المشاركة الوجدانية على شكل لم يسبق إليه فيقول :

وقد رَنَّقَتْ شَمْسُ الْأَصِيلِ وَنَفَّضَتْ

عَلَى الْأَفْقِ الْغَرْبِيِّ وَرَساً مُزَعَّعاً^(١)

وَوَدَّعَتِ الدُّنْيَا لِتَقْضَى نَحْبَهَا وَشَوْلَ بَاقِي عَمْرِهَا فَتَشَعَّشَعَا^(٢)

وَلَا حَظَّتِ النُّوَارَ وَهَى مَرِيضَةً

وقد وضعتُ خِداً إِلَى الْأَرْضِ أَضْرَعاً^(٣)

كَمَا لَحِظْتُ عَوَادَهُ عَيْنٌ مُدْنَفٍ تَوَجَّعَ مِنْ أَوْصَابِهِ مَا تَوَجَّعَا^(٤)

وِظَلَّتْ عَيُونُ الرُّوضِ تَخْضَلُ بِالنَّدَى

كَمَا اغْرُورَقَتْ عَيْنُ الشَّجِيِّ لِتَدْمَعَا

يُرَاعِيْنَهَا صُوراً إِلَيْهَا رَوَانِيَا وَيَلْحَظُنَّ الْحَاطَاً مِنَ الشَّجْوِ خُشَعَا^(٥)

وَبَيْنَ إِغْضَاءِ الْفِرَاقِ عَلَيْهِمَا كَأَنَّهُمَا خِلَاً صَفَاءِ تَوَدَّعَا

(١) الورس : نبات أصفر . مزعزعاً : متحرك .

(٢) شول : نقص حتى كاد ينتهي .

(٣) أضرع صفة مشبهة بمعنى ضارِع : ذليل .

(٤) المدنف : المريض .

(٥) الصور : ج صوراء وهى المائلة العنق .

وقد ضَرَبَتْ في خُضرة الروضِ صُفرةً

من الشمس فاخضرَّ اخضراراً مُشْعِشَعاً

وأَذَكَّى نَسِيمَ الرِّوْضِ رِيْعَانُ ظِلُّهُ

وغنَّى مغنَّى الطيرِ فيه وَسَجَّعاً^(١)

وهذا ابن المعتز نراه تستهويه الصورة فيأتى شعره في الطبيعة آية على إرهاب حاسة البصر وحسن استقباله للألوان والأصباغ ودقة إخراجه للصور والأشكال كقوله يصور احتجاب الشمس وراء السحب :

كَأَنَّ الشَّمْسَ يَوْمَ الْغَيْمِ لَحْظُ . مَرِيضٌ مَدْنَفٌ مِنْ خَلْفِ سِتْرِ
وقوله يصف الهلال وصفاً فيه بهاء الصورة وترفها :

انْظُرْ إِلَى حُسْنِ هَلَالٍ بَدَا يَهْتِكُ مِنْ أَنْوَارِهِ الْجَنْدِيسَا
كَمِنْجَلٍ قَدْ صَبِغَ مِنْ فِضَّةٍ يَخْصِدُ مِنْ زَهْرِ الدَّجَى نَرْجِسَا

ويستوقفنا في القرن الرابع الهجري شاعر عبقري هو أبو بكر محمد بن أحمد الصنوبري وقد اجتمعت لديه أكثر مقومات شاعر الطبيعة وكان من هذه الكوكبة من شعراء الوصف الذين عاصروا المتنبي فطغت عايمهم شهرته العظيمة . لقد كان الصنوبري شاعر الروض والزهر وقد صدر في شعره عن شعوره الصادق نحو الطبيعة .

تلك هي أسماء في سماء الشعر العربي ترسم لنا الشكل الذي قيل فيه شعر الطبيعة في المشرق أتينا بها كمدخل لبحثنا ، فإلى حال شعر الطبيعة في الأندلس ، وما هي الدواعي التي جعلت هذا الشعر يزدهر في تلك الأرض الأندلسية الحبيبة .

(١) أذكى : عطر ونشر الرائحة الجميلة . ريعان الشباب : نضوته ، وريعان الظل : امتداده وكونه وارفاً .

بواعث شعر الطبيعة في الأندلس وخصائصه الهامة

منح الله الأندلس طبيعة فاتنة فكانت أغنى بقاع المسلمين منظراً وأوفرها جمالا . ترتفع فيها الجبال الخضراء وتمتد في بطاوحها السهول الواسعة وتجري فيها الجداول والأنهار وتغرد على أفنان أشجارها العنادل والأطيّار وتنساب الماشية والأنعام في مراعيها الجميلة ويعمل الفلاحون في حقولها الخضراء ويعطر النسيم جوّها المعتدل وبساتينها المشرقة . وقد تحدث عن جمالها كلُّ من حلها . وأفاض المقرئ في وصف طبيعتها الفتانة وجنانها الهيجة وانتهى إلى أن « محاسن الأندلس لا تستوفي بعبارة ، ومجاري فضلها لا يشق غباره » .

وقد كان من أثر جمال الأندلس أن شغفت بها القلوب وهامت بها النفوس ، فتعلق بها الأندلسيون جميعاً وأقبلوا يسرّحون النظر في خمائنها ويستمتعون بمفاتنها ما شاء لهم الاستمتاع ، وأخذ الشعراء والكتاب ينظمون كلمهم درراً في وصف رياضها ومباهج جناتها بعد أن فتحت في نفوسهم قول الشعر وجعلتهم يرون فيها -- كما يقول ابن خفاجة -- جنة الخلد بمائها وظلها وأنهارها وأشجارها :

يا أَهْلَ أَنْدَلِيسِ لِلّهِ دَرْكُمْ مَاءٌ وَظِلٌّ وَأَنْهَارٌ وَأَشْجَارُ
ما جنةُ الخُلْدِ إِلَّا في ديارِكُمْ ولو تَخَيَّرْتُ هذا كُنْتُ أَخْتَارُ
لَا تَخْتَشَوُا بَعْدَهَا أَنْ تَدْخُلُوا سَقَرًا فليس تُدْخَلُ بَعْدَ الْجَنَّةِ النَّارُ

وقد ملكت معاني هذا الجمال نفوسهم واستحثت قرائح الشعراء فيهم وغذتها أفضل غذاء ، وكان يكفي أن تهب على ساكن هذه الجنة نفحة من نسيم عليل ليصبح مع شاعرها ابن خفاجة :

إِنَّ لِلْجَنَّةِ في الْأَنْدَلِيسِ مُجْتَلَى حُسْنٍ وَرِيًّا نَفْسِ

فَسَنَا صُبَّحَتِهَا مِنْ شَنْبٍ وَدُجَى ظُلُمَتِهَا مِنْ لَعَسٍ
فَإِذَا مَا هَبَّتْ الرِّيحُ صَبَاً صَحَتْ: وَاشَوْقَى إِلَى الْأَنْدَلُسِ!

ولم يكن جمال الطبيعة في الأندلس هو وحده الذى ساعد على ازدهار شعر الطبيعة فيها ، بل إن الحياة الالهية نفسها التى أشرنا إليها والتى عاشها الشعراء كانت سبباً لهذا الازدهار ، إذ كانت الطبيعة مسرح حياة الشاعر الالهية ، وفى أحضانها استسلم للهوى وجهه وخره ، وعكف يصور هذا اللهو وهذا الحب وهذا الخمر فى إطار الطبيعة مقدماً لنا لوحات فيها العبير والأصباغ والألوان .

فما هى تلك الخصائص التى امتاز بها شعر الطبيعة فى الأندلس ؟

١ - هو شعر يمثل تعلق الشعراء الأندلسيين ببيئتهم وتفضيلها على غيرها من البيئات ، بعد أن كان هواهم متعلقاً بصور الجزيرة العربية . وقد رأينا كيف أن ابن خفاجة يتعلق بالأندلس ويراهها جنة الخلد ، ويرى أن كل ما فيها جميل مطرب ، ولابن زيدون وابن حمديس ولغيرهما من الشعراء مثل هذا التعلق . وهذا الحب كما رأينا فيما تقدم .

٢ - هو شعر يصف طبيعة الأندلس الطبيعية والصناعية ، فشعراء الطبيعة يصفونها كما أبدعها الله فى الحقول والرياض والأنهار والجبال والسماء والنجوم ، ويصفونها كما صورها الفن مجلوة فى القصور والمساجد والبرك والأحواض فيكمل تذوقهم لجمال الطبيعة وتتضح ألوانها وأشكالها أمام نواظرهم فيزدادون لها حباً وبها تعلقاً ؛ وهم كذلك قد أتوا على أوصاف جديدة للطبيعة الحية كما فعل ابن خفاجة فى وصف الفرس والذئب .

٣ - وهو شعر يصف الأقاليم الطبيعية المختلفة لبلاد الأندلس ، فكان لبعض الأقاليم شعراؤها الذين اهتموا بوصف ديارهم . فابن زيدون يتغنى بقرطبة وزهرائها . وابن سفر المرنى يصف إشبيلية ، وأبو الحسن بن نزار يتعلق بوادى أشات فيصوره تصويراً نيماً عن براعة بما يتركه فى النفس من طراوة الندى والظل والشجر فيقول :

وَأَدَى الْأَشَاتِ يَهِيْجُ وَجَدَى كَلِمَا أَذْكَرْتَ مَا أَفْضَتْ بِكَ النِّعْمَاءُ
لِلَّهِ ظِلُّكَ وَالْهَجِيرُ مَسْلُطٌ قَدْ بَرَدَتْ لَفَحَاتِهِ الْأَنْدَاءُ
وَالشَّمْسُ تَرْغَبُ أَنْ تَفُوزَ بِلَحْظَةٍ مِنْهُ فَتَطْرِفُ طَرْفَهَا الْأَفْيَاءُ
وَالنَّهْرُ يَبْسِمُ بِالْحَبَابِ كَأَنَّهُ سَلَخُ نَضْتِهِ حَيَّةٌ رَقُطَاءُ
فَلِذَاكَ تَحْذَرُهُ الْعَيُونُ ، فَمِثْلُهَا أَبَدًا عَلَى جَنَابَاتِهِ إِيْمَاءُ

وهكذا كان شعراء الأندلس يعبرون عن مشاهد طبيعية رأوها وعاشوا في رحابها وأحسوا بجمالها .

٤ - الطبيعة عندهم طروب تبعث جو الطرب ، ووصفها يمثل الجوانب الضاحكة الندية منها ، وأكثر شعرهم في الطبيعة وصف لمتزهاتهم ومجالس أنسهم ولهموم في أحضانها كما بدا لنا من الأمثلة التي جئنا على ذكرها فيما تقدم .

٥ - وصف الطبيعة عندهم متصل بالغزل والخمر ، وهو طريق إليهما ، ولذا فقد رأينا شعراء الأندلس لا يذكرون الطبيعة إلا في رحاب الحب بل لا يذكرون الحب إلا في رحاب الطبيعة ، وهم بهذا يمنحون غزلهم لوناً بهيجاً من الجمال تقدمه الطبيعة التي تضم خلواتهم وتفسح لهم مجال اللهو والشراب ، والأمثلة كثيرة في شعر ابن زيدون وابن حمديس وابن خفاجة وغيرهم على امتزاج الطبيعة بالغزل والخمر وما يقتضيه هذا الامتزاج من هو وطرب . فغزل الأندلسيين إذن يهتم ، إلى جانب وصف المحبوب ، بالمكان الذي ضم هذا المحبوب وهو غالباً الطبيعة ، بينما كان الغزل بالشرق يهتم ، على الغالب ، بالوصف المادى وذكر الحوار واللقاء كما كان يفعل عمر بن أبى ربيعة وشعراء مدرسته ومن جاء بعده .

٦ - المرأة صورة من محاسن الطبيعة ، والطبيعة تجد في المرأة ظلها وجمالها ، ولذا كانت الحبيبة روضاً وجنة وشمساً ، وقد قال المقرئ عن شعراء الأندلس :
« إنهم إذا تغزلوا صاغوا من الورد خدوداً ومن النرجس عيوناً ومن الآس أصداغاً »

ومن السفرجل نهوداً ومن قصب السكر قدوداً ومن قلوب اللوز وسُرر التفاح
مباسم ومن ابنة العنب رُضاباً^(١). وهكذا كانت العلاقة شديدة بين جمال المرأة
وبين الطبيعة فلا تذكر المرأة إلا وتذكر معها الطبيعة .

٧ - وشعرهم يعنى بتشخيص الطبيعة وتصويرها على نحو إنسانى تملؤه الحركة
والنشاط كما فى شعر ابن زيدون وابن خفاجة وغيرهما وكما فعل لسان الدين بن
الخطيب فى موشحته التى عارض بها موشحة ابن سهل والتى مطلعها :

جَادَكَ الْغَيْثُ إِذَا الْغَيْثُ هَمَى يَا زَمَانَ الْوَصْلِ بِالْأَنْدَلِسِ
لَمْ يَكُنْ وَضْلُكَ إِلَّا حُلُمًا فِي الْكَرَى أَوْ خِلْسَةَ الْمُخْتَلِسِ

فى هذه الموشحة يجلل الحيا الروض فتبسم ثغور الزهور ، ويتناجى الماء
والحصا فيغار الورد ويحمر حنقاً ، ويتنبه الآس فيسرق السمع ليفهم سر المناجاة .
والشعر الأندلسى يقدم لنا لوحات أخرى تم عن امتزاج الشاعر بالطبيعة
وصدق عاطفته نحوها وتشخيصه لها حتى أصبحت لسان نجواه وخفقة قلبه .

٨ - وشعر الطبيعة عندهم لا يظهر كغرض مستقل إلا نادراً فى بعض
المقطوعات والقصائد ، وقد امتزج فى أكثر الأغراض التى طرقها الشعراء
الأندلسيون ، وكان الغزل كما رأينا أكثر هذه الأغراض امتزاجاً بالطبيعة ، إلا أن
هذه الثنائية نراها أيضاً فى المدح والرثاء والعتاب والفخر ، فهذا ابن زيدون يصف
خلائق أبى الوليد بن جهور بالروض الضاحك . فيقول :

لِلجَهْوَرِيِّ أَبِي الْوَلِيدِ خَلَائِقُ كَالرَّوْضِ أَضْحَكُهُ الْغَسَامُ الْبَاكِي

وكذلك يمدح العتمد على نعمه فيراها جنة يفضل فيها القريض :

أَوْرَثَنِي نِعْمَاكَ جَنَّةَ عَدْنٍ جَالٍ فِي وَصْفِهَا فَضْلُ الْقَرِيضِ

ثم يعاتب ابن زيدون صاحبه أبا حفص بن بُرْد ويطلب منه أن يكون مثله دائماً الوفاء فينظر إلى الطبيعة فيرى في الآس وديمومة اخضراره ما يريد أن يعبر عنه :

لا يَكُنْ عَهْدُكَ وَرْدًا إِنََّّ عَهْدِي لَكَ آسُ

وهكذا فذكر الطبيعة يمنح هذه الأعراض صفة أندلسية تتجلى في اقتناص المعاني من طبيعة الأندلس .

٩- وقد كان لطبيعة الأندلس وما احتضنت من غزل وهوى وغناء أثر في اختراع قالب شعري جديد طبعته الأندلس بطابعها ألا وهو « الموشح » ذلك الفن الشعري المستحدث الذي غنى طبيعة الأندلس وهوها وعاش في نعيم ظلالها وعبق ريحانها .

• • •

هذه جملة المميزات لشعر الطبيعة في الأندلس ، وقد استطاع شعراؤها أن يصفوها ، في كثير من الحالات ، من خلال نفوسهم ولكنهم نظروا إليها ، على الغالب ، نظرة مصور فبدت لعيونهم كثيرة الأصباغ والألوان وزينوها بصناعة لفظية وخيال بصرى أنيق . ولم يستطيعوا أن يتجردوا من ماضى شعر الطبيعة وإن كانوا قد طبعوه أحياناً بطابعهم وأخضعوه لمقومات بيئتهم . ولئن استطاع بعضهم في عدد من القصائد أن يصف خلجات نفسه نحوها ، فقد قضاها بصورة عامة عن الاتحاد بها اتحاداً تاماً على طريقة المفهوم « الرومانتيكى » عند شعراء الغرب .

وهكذا بقي شاعر الطبيعة الأندلسي ، على رغم حسه العميق وحبه للطبيعة ، يصورها ويزخرفها ببصره ويحسمها ويحملها بخياله ، فأجاد الصناعة ولم ينفخ فيها دائماً الروح .

• • •

والخلاصة أن وصف الطبيعة في الأندلس كان ، على الغالب الأعم ، شغفاً

بمحاسنها وتصويراً حسيّاً لمباهجها ، تموج به ، بين حين وآخر ، خفقة من حياة ودفقة من عاطفة صادقة .

وإننا لو اجدون في المنتخبات الشعرية الآتية بعض هذه الخصائص التي أتينا على ذكرها .

• • •

منتخبات

من شعر الطبيعة في الأندلس

من شعر ابن حمديس :

قال ابن حمديس يصف الخمر في ظلال الطبيعة :

نحنُ في جنةٍ نباكرُ منها ساحليْ جدولٍ كَسِيفٍ مجردٍ
صقلتُ متنهْ مداوُسُ شمس من خلال الغصون صملاً مُجَدَّد^(١)
ومدام تطير في الصحن سُكْرًا فتَحَلُّ العقودُ منها وتُعَقَّد
جِسْمها بالبقاء في الدنَّ يَبَلَى وقواها مع الليالي تَجَدَّد^(٢)
وإذا الماءُ غاَضَ في النار منها أُخْرِجَ الدرُّ من حبابٍ منضَّد
يا لها من عصيرٍ أوَّلِ كرم سَكِرَ الدرُّ منه قِدْماً وعربد
جنةٌ مَجَّت الحيا إذ سقاها مُصلِحٌ من غمامِه غيرُ مُفْسِد
قد لبسنا غلائلَ الظلِّ فيها مُعلّـماتٍ من الشُّعاعِ بِعَسَجَد^(٣)

(١) المداوُس : مفردا مدوس ومدواس وهي المصقلة .

(٢) الدن : جمعها دنان وهي راقود الخمر .

(٣) معلّـمات : مخططات .

ورأينا نارنجها من غصون هزت الريح حصرها فهي مُيد
 ككرات محمرة من عقيق تذررها صوالج من زبرجد
 وكان الأنوار فيها ذبال بسليط من الندى تتوقد^(١)
 وكان النسيم بالفرج يُفشي بين روضاتها سرائر خرد^(٢)
 حيث نُسقي من السرور كووساً ونغني من الطيور وننشد
 ذو صغير مُرجع أو هديل أسمعتم عن الغريض ومعبد؟
 شاديات تمسي الغصون وتضحى رُكعاً للصبا بهن وسجد
 كان ذا الزمان سمح السجايا ببواد من الأمانى وعود
 والصبا في معاطفي وكأني غصن في يد الصبا يتأود^(٣)

قال ابن حمديس يصف الليل والثريا والسها وطلوع الفجر وشرق الشمس ،
 في مقطوعة مطلعها :

وليل رَسَبْنَا في عُبابِ ظلامه إلى أن طَفَأَ للصبح في أفقه نجم
 كأن الثريا فيه سُبُعُ جواهر فواصلها جَزَعُ به فُصِّلَ النَّظْمُ^(٤)
 وتحسبها من عسكر الشَّهْبِ سُرْبَةٌ
 عمائمهم بيضٌ وخیلهم دُهم^(٥)

(١) الذبال : مفردا ذبالة وهي الفتيلة . السليط : الزيت .

(٢) فرج الراوى : بطنه . الخرد مفردا خريدة وهي الحمية الطويلة السكوت .

(٣) يتأود : يتمايل .

(٤) الجزع : خرز فيه سواد وبياض واحده جزعة .

(٥) السرية : القطعة من خيل وقطا وظباء .

كَأَنَّ السَّهَى مُضْنَى أَتَاهُ بِنَعِيشِهِ
بَنُوهُ وَظَنُوا أَنَّ مَوْتَهُ حَتْمٌ^(١)

كَأَنَّ انْصِدَاعَ الْفَجْرِ نَارٌ يُرَى لَهَا وَرَاءَ حِجَابٍ حَالِكٍ نَفْسٌ يَسْمُو
وَتَحْسَبُهُ طِفْلاً مِنَ الرُّومِ طَرَقَتْ بِهِ مِنْ بَنَاتِ الزَّجَجِ نَائِبَةً أُمُّ
أَأْغْلَمَ فِي أَحْشَائِهَا أَنَّ عُمُرَهُ - لَدَى وَضْعِهِ - يَوْمٌ؟ فَشَيْبَةُ الْهَمِّ
وَدَرَّتْ لَنَا شَمْسُ النَّهَارِ مَذِيبَةً عَلَى الْأَرْضِ رُوحًا فِي السَّمَاءِ لَهُ جِسْمٌ

نزع ابن حمديس عن صقلية إلى إفريقية سنة ٤٧١ هـ وهو في سن الحداثة
وصحب العرب هناك ، فقال هذه الأبيات التي تصور تشوقه للطبيعة وهواها وتصف
ترحاله وتغربه في فبافيا :

إِنِّي لِأَبْسُطُ لِلْقَبُولِ إِذَا سَرَتْ خَدَيَّ وَأَلْقَاهَا بِتَقْبِيلِ الْيَدِ^(٢)
وَأَضُمُّ أَجْنَابِي عَلَى أَنْفَاسِهَا كَمَا تَبْرُدُ حَرَّ قَلْبٍ مُكْمَدٍ
مَسَحْتُ كِرَاقِيَةً عَلَى بَكْفِهَا وَنِقَابُهَا نِدٌّ مِنَ الزَّهْرِ النَّدَى^(٣)
وَعَرَفْتُ فِي الْأَرْوَاحِ مَسْرَاهَا كَمَا عَرَفَ الْمَرِيضُ طَبِيبَهُ فِي الْعُودِ
مَا لِي أُطِيلُ إِلَى الدِّيَارِ تَغْرِباً أَفْبَا لَتَغْرِبِ كَانَ طَالَعُ مَوْلَدِي
أَبَدًا أَبَدُودٌ بِالنَّوَى عَزَى إِلَى أَمَلٍ بِأَطْرَافِ الْبِلَادِ مُبَدَّدٌ^(٤)

(١) السها : نجم خفى من بنات نعل الصغرى .

(٢) القبول : ريح الصبا وتقابلها الدبور .

(٣) الراقية : التي تقوم بالرقية . ند : المثل والنظير .

(٤) النوى : البعد .

كم من فلاة جُبَّتْهَا بَنَجِيَّةٌ عَنْ مَنْسَمٍ دَامَ وَخَطْمٌ مُزِيدٌ^(١)
 أَبْقَى الْجَزِيلُ لَهَا جَمِيلَ ثَنَائِهِ فِي الْعَيْسِ مَوْصُولًا بِقَطْعِ الْفَدَقِ^(٢)
 ضَرَبَتْ مَعَ الْإِعْنَاقِ أَعْنَاقَ الْفَلَا بِحَسَامٍ مَاءٍ فِي حَشَاهَا مُغَمَدٌ^(٣)

قال ابن حمديس من قصيدة يصف فيها مظاهر الطبيعة :

نَشَرَ الْجَوُّ عَلَى الْأَرْضِ بَرْدَ أَيْ دُرٍّ لِنُحُورٍ لَوْ جَمَدَ
 لَوْلَوْ أَصْدَافُهُ السَّحْبُ الَّتِي أَنْجَزَ الْبَارِقُ مِنْهَا مَا وَعَدَ
 آرَقَ الْأَجْفَانِ رَعْدٌ صَوْتُهُ كَهَدِيرِ الْقَرَمِ فِي الشَّوْلِ حَفَدَ^(٤)
 بَاتَ يَجْتَاحُ بِإِبْكَارِ الْحَيَا بِلَدًا يَرْوِيهِ مِنْ بَعْدِ بَلَدَ
 وَكَأَنَّ الْبَرْقَ فِيهَا حَاذِفٌ بِضْرَامٍ كُلَّمَا شُبَّ خَمَدُ
 تَارَةً يَبْدُو وَيَخْفَى تَارَةً كَحَسَامٍ كُلَّمَا سُئِلَ غُمِدُ
 يَذْعَرُ الْأَبْصَارَ مُحَمَّرًا كَمَا قَلَّبَ الْحَمَلَاقَ فِي اللَّيْلِ الْأَسَدُ^(٥)
 وَعَلِيلُ النَّبْتِ ظَمَانُ الثَّرَى عَرَّجَ الرَّائِدُ عَنْهُ فَزَهْدُ
 خَلَعَ الْخِصْبُ عَلَيْهِ حُلًّا لَبْدِيْعِ الرَّقْمِ فِيهِنَّ جَدَدُ^(٦)
 وَسَقَاهُ الرَّيُّ مِنْ وَكَافَةٍ فَتَحَ الْبَرْقُ بِهَا اللَّيْلَ وَسَدُ^(٧)

(١) النجبية : الناقة . المنسم : طرف خف الناقة . الخطم : مقدم فم الدابة .

(٢) العيس : الإبل . الفدق : الفلاة .

(٣) الإعناق : السير الواسع الفسيح .

(٤) القرم : من الجمال ما لم يمسح حبل . حفد : أسرع .

(٥) حملاق العين : باطن أجفانها .

(٦) الرقم : الوشي .

(٧) الوكافة : تحابة كثيرة المطر .

ذاتِ قَطَرٍ داخلٍ جَوْفِ الثرى
 كحياةِ الرُّوحِ فى موتِ الجسدِ
 فَتَشْنَى الغصنُ سكرًا بالندى وتغنى ساجعُ الطير غرْدَ
 وكأنَّ الصبحَ كفَّ حَلَلَتْ من ظلامِ الليل بالنور عُقْدَ
 وكأنَّ الشمسَ تجرى ذهباً طائراً فى صيدهِ من كلِّ يدِ
 قال ابن حمديس يصف غديراً شقه نهر :

وزرقاء فى لونِ السماء تَنَبَّهَتْ لِتَحْبُكْهَا رِيحٌ تَهْبُ مع الفجر
 يَشْقُ حشاها جدولٌ متكفِّلٌ بِسَقَى رِياضِ ألبستْ حُلَّ الزهر
 كما طعنَ المقدامُ فى الحرب دارعاً بِعَضْبٍ فَشَقَّ الخصرَ منه إلى الخصر
 يُريك روؤساً منه فى جسمِ حَيَّةٍ سَعَتْ من حياةٍ فى حدائقه الخضر
 فلا روضةً إلا استعارتْ لَشُكْرِهِ لسانَ صَباً تسرى مطيِّبةَ النُّشُرِ

من شعر ابن خفاجة

وصف الجبل :

قال ابن خفاجة يصف الجبل وهى من درر قصائده التى تمثل امتزاج الشاعر
 بالطبيعة :

بعيشك هل تَدْرِى أَهْوَجُ الجَنائِبِ
 تَخُبُّ بِرَحْلِ أَمْ ظُهُورُ النَجائِبِ؟^(١)

(١) هوج الجنايب : رياح الجنوب الموجهاء . الجنايب : مفردتها نجبية وهى الناقة الكريمة .

فما لُحِتْ في أولى المشارق كوكباً
 فأشرفتُ حتى جئتُ أخرى المغرب
 وحيداً تهاداني الفياقى فأجتلى وجوه المنايا في قناع الغياهب^(١)
 ولا جارَ إلا من حُسامٍ مُصمِّمٍ ولا دارَ إلامن قُتودِ الركائب^(٢)
 ولا أنسَ إلا أن أضاحك ساعةً
 ثغورَ الأمانى في وجوه المطالب
 وليل إذا ماقلتُ قد بادَ فانقضى
 تكشَّفَ عن وعدٍ من الظنِّ كاذب
 سحبتُ الدِّياجى فيه سودَ ذوائبٍ
 لأعتنقَ الآمالَ بيضَ ترائب^(٣)
 فمزَّقْتُ جيبَ الليل عن شَخْصٍ أطلِسَ
 تطلَّعَ وضاح المَضاحِكِ قاطب^(٤)
 رأيتُ به قِطْعاً من الفَجَرِ أغْبِشاً تأمَّلَ عن نجمٍ توقَّدَ ثاقب^(٥)

(١) تهاداني الفياقى : تهادنى واحدة إلى أخرى . أجتلى : أنظر . الغياهب - جمع غيب : الظلمات .
 (٢) جار : حام ونامر . المصم : الماضى . القُتود جمع قند : أخشاب الرجل . الركائب جمع ركوبة : النوق .

(٣) الدِّياجى جمع دجى : الظلمات . الترائب جمع تريبة وهى العظمة فى الصدر .
 (٤) الجيب : ما يلى العنق من الثوب . عن شخص أطلِس : أى عن شخص أفق أطلِس والأطلِس الذى فى لونه غبرة إلى سواد ، وهو وضاح المضاحك لأن الصبح بدأ يطلع فيه ، وهو قاطب لأن بقية من الظلام لا تزال فيه .

(٥) قطعاً : جانباً . تأمَّل : هنا انكشف ويقصد بالنجم فى البيت الزهرة أو عطاردها لأنها يظهران فى الأفق على التناوب عند مطلع الفجر .

وَأَرَعْنَ طَّمَاحَ الذُّوَابَةِ بِاذْخٍ يُطَاوِلُ أَعْنَانَ السَّمَاءِ بِغَارِبٍ^(١)
يُسَدُّ مَهَبَ الرِّيحِ عَنْ كُلِّ وَجْهَةٍ وَيَزَحُمُ لَيْلًا شُهْبَهُ بِالْمَنَاكِبِ
وَقَوْرٌ عَلَى ظَهْرِ الْفَلَاقَةِ كَأَنَّهُ طَوَالَ اللَّيَالِي مُفَكِّرٌ فِي الْعَوَاقِبِ
يَلُوثٌ عَلَيْهِ الْغَيْمُ سَوْدَ عَمَائِمٍ لَهَا مِنْ وَمِيضِ الْبَرْقِ حَمْرُ ذَوَائِبٍ^(٢)
أَصْخَتْ إِلَيْهِ وَهُوَ أَخْرُسٌ صَامِتٌ
فَحَدَّثَنِي لَيْلَ السُّرَى بِالْعَجَائِبِ^(٣)
وَقَالَ أَلَا كَمْ كُنْتُ مُلْجَأً قَاتِلٍ وَمَوْطِنَ أَوَاهٍ تَبَتَّلَ تَائِبٍ^(٤)
وَكَمْ مَرَّبِي مِنْ مُدْلَجٍ وَمُؤَوَّبٍ وَقَالَ بَظْلِي مِنْ مَطْيٍ وَرَاكِبٍ^(٥)
وَلَا طَمَ ، مِنْ نَكْبِ الرِّيحِ ، مَعَاطِي
وَزَا حَمَ ، مِنْ خُضْرِ الْبَحَارِ ، غَوَارِي^(٦)
فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ طَوَّتْهُمْ يَدُ الرَّدَى وَطَارَتْ بِهِمْ رِيحُ النُّوَى وَالنَّوَائِبِ
فَمَا خَفَقُ أَيَكِي غَيْرُ رَجْفَةٍ أَضْلَعٍ وَلَانُوحُ وَرَقِي غَيْرُ صَرْخَةٍ نَادِبٍ^(٧)

(١) الأرعن : الجبل الشديد التواء . الغارب : الظهر .

(٢) يلوث : يعضب ويلف .

(٣) أصخت : أصغيت .

(٤) الأواه : هنا التائب الذي يتأوه من ذنوبه . تبتل : تنسك وانقطع إلى العبادة .

(٥) المدلج : السائر في الليل . المؤوب : الراجع . قال : نام القيلولة .

(٦) النكب : جمع نكباء وهي الرياح الشديدة .

(٧) الأيك جمع أَيْكة : الشجر الكثيف الملتف . الورق : جمع ورقاء وهي الحمامة .

وما غِيَضَ السلوانُ دُمعى وإنما نَزَفَتْ دُموعى فى فِرَاقِ الصَّواحِبِ^(١)
حتى متى أَبْقَى وَيظعنُ صاحبٌ أودَّعَ منه راحلاً غيرَ آيبٍ
وحتى متى أَرَعَى الكواكبَ ساهراً

فَمِنْ طالِعٍ ، أُخرى الليلَى ، وغارب

فَرُحِمَاكَ يامولَاى دَعْوَةً ضارِعٍ يمدُّ إلى نُعمَاكَ راحَةً رَاغِبٍ^(٢)
فَأَسْمَعْنى من وعظِهِ كلَّ عِبْرَةٍ يُترجَمُها عنه لسانُ التجاربِ
فَسَلَّى بِمَا أَبكى وَسَرَى بِمَا شَجَا

وكان ، على عهدِ السرى ، خيرَ صاحبٍ^(٣)

وقلت ، وقد نَكَبْتُ عنه لِطِيَّةٍ : سلامٌ فَإِنَّا مِنْ مُقِيمٍ وذاهِبٍ^(٤)

وصف الليل :

قال ابن خفاجة فى إحدى قصائده :

وليلٍ كما مدَّ الغرابَ جَنَاحَهُ وسالَ على وجهِ السَّجَلِ مداً
به من وميضِ البرقِ ، والليلِ فُحْمَةً شرارُ تَراعى والغمامُ زِنادُ
سريتُ به أَحْيِيهِ ، لَاحِيَةَ السُّرى تموتُ ولا مَيَّتُ الصِّباحُ يُعَادُ^(٥)

(١) غيَضَ : غور ، جعله ينضب .

(٢) البيت من كلام الجبل ومولاه هو الله .

(٣) سرى : بدد الحزن وأبعد الموم . شجا : أحزن .

(٤) الطية : الحاجة والقصد ووجهة المسافر ، وهنا بمعنى السفر .

(٥) يعاد : يزوار .

يقلب مني العزمُ إنسانَ مُقلّةٍ لها الأفقُ جفنٌ والظلام سواد
بخرقٍ لقلبِ البرقِ خفقةٌ روعةٌ به ، ولجفن النجم فيه سهاد^(١)
سحيقٍ ولا غيرَ الرياحِ ركائبٌ هناك ولا غيرَ الغمام مَزَادُ^(٢)
كَأَنِّي وَأَحْشَاءُ البلادِ تُجَنِّئِي سريرةُ حبٍّ والظلامُ فؤادُ^(٣)
أَجُوبُ جِيُوبِ البِيدِ والصَبْحُ صارمٌ له الليلُ غَمْدٌ والمَجَرُّ نِجَادُ
وَفِي مُصْطَلَى الآفاقِ جَمْرٌ كَوَاكِبُ
عَلاهَا مِنْ الفَجَرِ الْمُطْلُ رَمَادُ
وَلَمَّا تَعَرَّى مِنْ دُجَى الليلِ طَحْلِبُ
وَأَغْرَضَ مِنْ ماءِ الصَّبَاحِ ثِمَادُ^(٤)
حَنَنْتُ وَقَدْنَا حَ الحِمَامُ صَبَابَةٌ وَشُقَّ مِنَ الليلِ البَهِيمِ حِدَادُ
عَلَى حِينَ شَطَّتْ بِالحَبَائِبِ نِيَّةٌ وَحَالَتْ فَيَافٍ بَيْنَنَا وَبِلَادُ^(٥)

وصف متنزه :

قال ابن خفاجة :

وَمَجَرُّ ذَيْلٍ غَمَامَةٍ قَدْ نَمَّقَتْ وَشَى الرَّبِيعَ بِهِ يَدُ الْأَنْوَاءِ^(٦)

(١) الخرق : القفر .

(٢) سحيق : بعيد . المزاد : واحدتها مزادة ، وهي جلود يضم بعضها إلى بعض ويوضع فيها الماء .

(٣) تجنئى : تسترى .

(٤) تعرى : انشق . الثباد : الماء القليل .

(٥) شطت : بعدت . النية : الرحلة البعيدة . الفيافى : القفار واحدتها فيفاء .

(٦) نمقت : زينت . الوشى : النقش بالألوان .

أَلْقَيْتُ أَرْحُلَنَا هُنَاكَ بِقَبَّةٍ مَضْرُوبَةٍ مِنْ سَرَحَةٍ غَنَاءٍ ^(١)
 وَقَسَمْتُ طَرْفَ الْعَيْنِ بَيْنَ رِبَاوَةٍ مَخْضَرَةٍ وَقَرَارَةٍ زَرْقَاءٍ ^(٢)
 وَشَرِبْتُهَا عَذْرَاءَ تَحَسَّبَ أَنَّهَا مَعْصُورَةٌ مِنْ وَجْنَتَيْ عَذْرَاءٍ ^(٣)
 حَمْرَاءَ صَافِيَةٍ تَطِيبُ بِنَفْسِهَا وَغَنَائِهَا وَخَلَائِقِ النُّدْمَاءِ ^(٤)
 خُذْهَا كَمَا طَلَعَتْ عَلَيْكَ عَرَاةٌ مُفْتَرَّةٌ عَنْ لَوْلُؤِ الْأَنْدَاءِ ^(٥)

قال ابن خفاجة يصف سرحة على نهر :

وَسَرَحَةٍ خَاضَ مِنْهَا ظِلُّهَا نَهْرًا أَوْفَتْ عَلَيْهِ فَلَمْ تَنْقُصْ وَلَمْ تَزِدْ ^(٥)
 كَمَا تَدَانِيَتْ مِنْ ثَغْرِ لِمَرْتَشِفٍ ثُمَّ انْتَشَيْتَ فَلَمْ تَصُدُرْ وَلَمْ تَرِدْ
 كَانَ أَفْنَانُهَا طَيِّبًا ، حِمَى مَلِكٍ أَغْضَى وَأَعْطَى فَلَمْ يُوعِدْ وَلَمْ يَعِدْ ^(٦)

وقال يصف سحابة تمشى على الظلماء :

وَعِمَامَةٍ لَمْ يَسْتَقِلَّ بِهَا السُّرَى فَمَشَتْ عَلَى الظَّلْمَاءِ مَشَى مَقِيدٌ
 حَمَلَتْ بِهَا رِيحُ الْقَبُولِ سَحَابَةً سَحَابَةَ الْأَذْيَالِ تُلَمَسُ بِالْيَدِ
 فِي لَيْلَةٍ قَدْ بَاتَ يَلْحَسُ تَحْتَهَا حَبْرًا لِسَانُ الْبَارِقِ الْمَتَوَقَّدِ ^(٧)

(١) السرحة : الشجرة الطويلة . الغناء : الكثيرة الأغصان .

(٢) الرباوة : المرتفع . القرارة : المكان المظلم .

(٣) شربتها عذراء : أي خمرة بكرة غير ممزوجة .

(٤) العرارة ، واحدة العرار : بهار ، أي نبت طيب الرائحة ناعم أصفر . مفترّة : مبتسة .

(٥) أوفت : أشرفت .

(٦) أغضى : سكت .

(٧) شبه شدة الظلام بالحبر يلحسه لسان البرق .

نَسَجَ الضَّرِيبُ بِهَا الظَّلَامَ حَمَامَةً فَابْيَضَ كُلُّ غَرَابٍ لَيْلَ أَسْوَدٍ^(١)
 شَابَتْ وَرَاءَ قِنَاعِهَا لِمَمِّ الرَّبِّ وَاشْمَطَ مَفْرَقُ كُلِّ عَضْبٍ أَمْلَدَ^(٢)
 حَدِيثُ كَالنَّسِيمِ :

قال ابن خفاجة في إحدى قصائده :

وَلَيْلٍ تَعَاظَيْنَا الْمَدَامَ وَبَيْنَنَا حَدِيثُ كَمَا هَبَّ النَّسِيمُ عَلَى الْوَرْدِ
 نَعَاوُدُهُ وَالْكَأْسُ يَعْبَقُ نَفْحَةً وَأَطْيَبُ مِنْهُ مَا تُعِيدُ وَمَا تُبْدِي
 وَنَقْلَى أَقَاحُ الثَّغْرِ أَوْ سَوْسُنُ الطُّلَى
 وَنَرْجِسُهُ الْأَجْفَانِ أَوْ وَرْدَةُ الْخَدِ^(٣)
 إِلَى أَنْ سَرَتْ فِي جِسْمِهِ الْكَأْسُ وَالْكَرَى

وَمَالَا بَعْطَفِيهِ فَمَالَ عَلَى عَضْدِي
 فَأَقْبَلْتُ أَسْتَهْدِي، لِمَا بَيْنَ أَضْطَلَعِي مِنَ الْحَرِّ، مَا بَيْنَ الضَّلُوعِ مِنَ الْبَرْدِ

وأكثر مطالع مدائح ابن خفاجة أبيات في وصف الطبيعة يمازجها الغزل ،
 وإليك ، بعد مقدمة غزلية ، هذه الأبيات التي يصف بها الطبيعة من قصيدة
 يمدح بها الأمير أبا يحيى بن إبراهيم :
 وَمَعَجَرٌ ذِيلُ غِمَامَةٍ لَبَسَتْ بِهِ وَشَى الْحَبَابُ مَعَاطِفُ الْأَنْهَارِ

(١) الضريب : الثلج .

(٢) أراد بالغضب الفصن . الأملد : الناعم .

(٣) الثقل : ما يتقل به عل الشراب من فستق وتفتح ونحوهما .

خَفَقَتْ ظِلَالُ الْأَيْكِ فِيهِ ذَوَائِباً وَارْتَجَّ رِدْفاً مَائِجُ التَّيَّارِ
 وَلَوَى الْقَضِيبُ هُنَاكَ جِيداً أَتْلَعَا قَدْ قَبَّلَتْهُ مِبَاسُمُ النُّوَارِ
 بَاكَرْتُهُ وَالْغَيْمُ قِطْعَةً عَنِبرٍ مَشْبُوبَةٌ وَالْبَرْقُ لَفْحَةٌ نَارِ
 وَالرَّيْحُ تَلْطِمُ فِيهِ أَرْدَافَ الرَّبِّي لَعِباً وَتَلْتُمُ أَوْجُهُ الْأَزْهَارِ
 وَمَنَابِرُ الْأَشْجَارِ قَدْ قَامَتْ بِهَا خُطْبَاءُ مُفْصِحَةٌ مِنَ الْأَطْيَارِ

وكان ابن خفاجة يمهّد لمذائحه بغزل رقيق فيه صنعة العبقرى ، ثم يقف عند
 مظهر من مظاهر الطبيعة فيصف غمامها أو رياضها إلى أن يقوده الطاف إلى
 الممدوح ، وقصيدته الرائية في مدح أبي الحسن بن الربيع صاحب قرطبة تتبع
 هذه الحطة فلنسمعه وقد اتخذ من الطبيعة طريقاً لمدح الممدوح قال :

وغمامة نَشَرْتُ جَنَاحَ حَمَامَةٍ وَالْبَرْقُ قَدْ نَسَجَ الظَّلامَ نَهَارَا
 مَتَأَلَّقُ صَدْعُ الدَّجَى وَسَقَى الثَّرَى فَا بَيْضُ ذَا نَوْرًا وَذَا أَنْوَارَا
 فِي أَجْرَعِ خَلْفَ الرَّبِيعِ بِهِ ابْنَهُ كَرَمًا فَأَخْصَبَ رِبْوَةً وَقَرَارَا^(١)
 هَفَّتِ الصَّبَا مِنْهُ بِمَسْرِ دِيْمَةٍ هَطَلَاءُ قَرَّ بِهَا الْعَجَاجُ وَقَارَا
 وَكَفَتْ فَسَالَتْ فَضَةً وَلَرْبَمَا طَبَعَتْ بِكُلِّ قَرَارَةٍ دِينَارَا
 أَرْضٌ هَبَطَتْ بِهَا سَمَاءٌ طَلَقَتْ وَخَبِطَتْ مِنْ سَدَفٍ بِهَا أَنْوَارَا
 عَاطِيَتْ ذَكَرَ أَبِي الْحَسَنِ بِهَا السُّرَى

ريحانة يَشْتَمُهَا مِعْطَارَا

(١) لعله أراد بابن الربيع المطر ، وذلك بدليل قوله فأخصب .

وسلافةً خَفَّتْ بنا طرباً لها واسترقصت من فتية ومهاري
عَبِثَتْ بها سِنَّةُ الكرى فَمَا يَدَّتْ في ملتقى أسحارها أسجارا

قال ابن خفاجة يصف الطبيعة في جو من الخمر :

أَحْسُ المُدَّامَةِ والنسيمِ عليلٌ والظلُّ خَفَّاقُ الرواقِ ظليلٌ^(١)
وَالنُّورُ طَرْفٌ قد تَنَبَّهَ دَامِعٌ والماءُ مُبْتَسِمٌ يروقُ صَقِيلٌ
وَتَطَلَّعَتْ من برقِ كلِّ غمامَةٍ في كلِّ أَفْقٍ رَايةٌ ورَعِيلٌ^(٢)
حَتَّى تَهَادَى كلُّ خُوْطَةٍ أَيْكَةٍ رِيًّا وَغَصَّتْ تَلْعَةً ومَسِيلٌ^(٣)
عَطَفَ الأَرَاكَةَ فَانْتَشَتْ شُكْرًا لَهُ

طَرَبًا وَرَجَعَ في الغصونِ هَدِيلٌ^(٤)
فَالرَّوْضُ مَهْتَزٌّ المعاطفِ نِعْمَةً نَشْوَانٌ يعطِفُه الصَّبَا فيمِيلُ
رِيَّانٌ فَضْضُهُ النَّدَى ثمَّ انجَلَى عَنْهُ فَذَهَبَ صَفْحَتِيهِ أَصِيلُ
وَارْتَدَّ يَنْظُرُ في نِقَابِ غمامَةٍ طَرْفٌ يَمْرُضُهُ النِّعَاسُ كَلِيلٌ^(٥)
سَاجٍ كَمَا يَرْنُو إِلَى عُوَّادِهِ شَاكٍ وَيَلْتَمِحُ الْعَزِيزَ ذَلِيلُ

(١) الرواق : مقدم البيت ، وقد شبه الظل ببيت مضروب يخفق هواء رواقه .
(٢) الرَعِيل : الجماعة من الخيل ، شبه السحب بجماعات الخيل وكتائبها في الحرب ، وشبه البروق المنبعثة منها بالرايات الحمراء المنشرة فوق رؤوسهم .
(٣) كل خوطة : كل غصن . الأيكة : الشجر الملتف . التلعة : مجرى الماء من الجبل إلى الوادئ .

(٤) عطف الأراكاة : أى عطف النسيم الأراكاة .
(٥) طرف : أى طرف كل شارب منا . فبعد أن كان ينظر إلى الأزهار في النهار ارتد ينظر في غمامة كأنها النقب ، وهذا الطرف كليل من السكر .

قال ابن خفاجة يحن إلى حبه في ظلال الطبيعة :

لَكَ اللهُ مِنْ بَرْقٍ تَرَاءَى فِلسَمًا

وصافح رسمًا ، بالعذيب ، ومعلمًا^(١)

إِذَا مَا تَجَاذَبْنَا الْحَدِيثَ عَلَى السُّرَى بِكَيْتٍ عَلَى حُكْمِ الْهَوَى وَتَبَسُّمًا

وَلَمْ أَعْتَنِقْ بَرْقَ الْغَمَامِ ، وَإِنَّمَا وَضَعْتُ عَلَى قَلْبِي يَدَيَّ تَأَلَّمًا

وَمَا شَاقَنِي إِلَّا حَفِيفَ أَرَاكَةِ وَسَجُّ حَمَامٍ بِالْغُمِيمِ تَرَنَّمًا^(٢)

وَسِرْحَةً وَادٍ هَزَّهَا الشَّوْقُ لَا الصَّبَا

وَقَدْ صَدَحَ الْعُصْفُورُ فَجْرًا ، فَهَيْنَمًا^(٣)

أَطْفَتُ بِهَا أَشْكُو إِلَيْهَا وَتَشْتَكِي

وَقَدْ تَرَجَّمَ الْمُكَاةُ عَنْهَا ، فَأَفْهَمًا^(٤)

تَحَنُّنًا وَمَعَ الشَّوْقِ يَسْجُمُ وَالنَّدَى وَقَرَّ بَعِينِي أَنْ تَحَنُّ وَيَسْجُمَا

وَحَسْبُكَ مِنْ صَبٍّ بِكَيٍّ وَحَمَامَةٍ فَلَمْ يَدْرِ شَوْقًا أَيَّمَا الصَّبِّ مِنْهُمَا

وَلَمَّا تَرَاءَتْ لِي أَثَافِي مَنَزَلٍ أَرْتَنِي مُحْيَا ذَلِكَ الرَّبْعَ أَهْمًا^(٥)

تَرَنَّنَ بِي لَذَعٌ مِنَ الشَّوْقِ مَوْجِعٌ

نَسِيتُ لَهُ الصَّبْرَ الْجَمِيلَ تَأَلَّمًا

(١) العذيب : موضع . معلم الشيء : معهده ، ومنه معالم الطريق عكس مجازها .

(٢) الغيم : وادٍ في بلاد العرب .

(٣) السرحة : الشجرة العظيمة .

(٤) المكاء : طائر سمي هكذا لأنه يكو أي يصفر .

(٥) الأثافي : حجارة الموتد . الأعمى : المظلم .

فَأَسْلَمْتُ قُلُوباً بَاتَ يَهْفُو بِهِ الْهَوَىٰ وَقُلْتُ لِدَمْعِ الْعَيْنِ أَنْجِدْ فَأَتَتْهُمَا
وَحَلَيْتُ دَمْعِي وَالْجَفُونَ هَنِيئَةً فَأَفْصَحَ سِرٌّ مَا فَغَرْتُ بِهِ فَمَا
وَعَجْتُ الْمَطَايَا حَيْثُ هَاجَ بَنَى الْهَوَىٰ

فَحَيَّيْتُ مَا بَيْنَ الْكُثَيْبِ إِلَى الْحِمَى^(١)
وَقَبَلْتُ رَسَمَ الدَّارِ حَبًّا لِأَهْلِهَا وَمَنْ لَمْ يَجِدْ إِلَّا صَعِيدًا تَيْمَمًا
وَحَنَّتْ رِكَابِي وَالْهَوَىٰ يَبْعَثُ الْهَوَىٰ

فَلَمْ أَرَ فِي تَيْمَاءٍ إِلَّا مَتِيًّا^(٢)
فَهَا أَنَا وَالظُّلُمَاءُ وَالْعَيْسُ صَحْبَةٌ

تَرَامِي بِنَا أَيْدِي النَّوَى كُلَّ مُرْتَمَى
أُرَاعِي نَجُومَ اللَّيْلِ حَبًّا لِبَدْرِهِ وَلَسْتُ كَمَا ظَنَّ الْخَلَى مُنْجَمًا
وَمَا رَاعَنِي إِلَّا تَبَسُّمٌ شَبِيهٌ نَكَرْتُ لَهَا وَجَهَ الْفَتَاةِ تَجْهَمًا
فَعَفْتُ غُرَابًا يَصْدَعُ الشَّمْلَ أَبْيَضًا

وَكَانَ عَلَى عَهْدِ الشَّبِيهَةِ أَسْحَمًا^(٣)

فَإِهْ طَوِيلًا ثُمَّ آدَ لِكَبْرَةِ بَكَيْتُ عَلَى عَهْدِ الشَّبَابِ بِهَا دَمًا
قَالَ ابْنُ خَفَاجَةَ يَصِفُ فَرَسًا كَرِيمًا وَيَذْكُرُ الطَّبِيعَةَ :

تَخِيرْتُهُ مِنْ رَهْطٍ . أَعْوَجَ سَابِحًا . أَغْرَّ كَرِيمَ الْوَالِدَيْنِ نَجِيًّا^(٤)

(١) عَجْتُ الْمَطَايَا : عَطَفْتُهَا .

(٢) تَيْمَاءُ : مَوْضِعٌ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ .

(٣) عَفْتُ : زَجَرْتُ . شَبِيهٌ غُرَابٌ أَبْيَضٌ يَفْرُقُ الشَّمْلَ ، وَكَانَ فِي شَبَابِهِ أَسْوَدَ .

(٤) رَهْطٌ : جَمَاعَةٌ . أَعْوَجَ : فَرَسٌ كَرِيمٌ تَنْسَبُ إِلَيْهِ الْخَيُْولُ الْعِتَاقُ . السَّابِحُ : السَّرِيعُ .

النَّجِيْبُ : النَّفِيسُ فِي نَوْعِهِ .

خفيفاً ولم يحلم بسوط. كأنما يفوت عدواً أو يوم حبيبا^(١)
 سرى وانتمى برق بذى الأثل ليلة فبات بها هذا لذاك نسيبا^(٢)
 وحنّ إلى سفر فطار إلى السرى يخوض خليجاً أو يجوب كثيبا
 يوم بها أرضاً على كريمة ومرتبعا فيها إلى حبيبا
 ونهراً كما ابيضّ المقبل سلسلاً وجزعا كما اخضر العذار خصيبا^(٣)
 ورب نسيم مرّ بي وهو عاطر رقيق الحواشي لا يحس دبيبا
 وجدت به من ذلك الماء بلة ومن نور هاتيك الأباطح طيبا
 فصافحت ريعان النسيم تشوقاً إليها ولازمت القضيّب رطيبا
 وقد قلّد النوار جيداً لربوة هناك ونحراً للفضاء رحيبا
 وأفصحت الورقاء في كل تلة نشيداً وقد رقّ النسيم نسيبا
 وكان على عهد الشباب تغنياً يشوق أخا وجدّ فعاد نحيبا
 دعا لغروب الدمع والدار غربة فلم أرَ إلا داعياً ومجيبا^(٤)

قال ابن خفاجة من شعره الوجداني الغزل :

قل للقبيح الفعال : يا حسنا ! ملأت جفني ظلمةً وسنا^(٥)
 قاسمتي طرفك الضني أفلا قاسم جفني ذلك الوسنا ؟

- (١) يفوت : يسبق ، ويغلب عدوه .
 (٢) ذى الأثل : موضع فيه شجر الأثل ، وهو شجر عظيم صلب تصنع منه الجفان والقصاع .
 (٣) المقبل : الثغر . السلسل : العذب . الجزع : من الوادي حيث يقطع .
 (٤) غروب الدمع : ميل الدمع ، واحدها غرب .
 (٥) السنا : الضياء .

إِنِّي وَإِنْ كُنْتُ هَضْبَةً جَلَدًا أَهْتَزُّ لِلْحَسَنِ، لَوْعَةً، غُصْنًا^(١)
 قَسَوْتُ بِأَسَاً وَلَيْنْتُ مَكْرَمَةً أَمْ أَلْتَزِمُ حَالَةً وَلَا سَنًا^(٢)
 لَسْتُ أُحِبُّ الْجُمُودَ فِي رَجُلٍ تَحْسِبُهُ مِنْ جُمُودِهِ وَثَنَا
 لَمْ يَكْحَلِ السَّهْدُ جَفْنَهُ كَلَفًا وَلَا طَوَى جِسْمَهُ الْغَرَامُ ضَنَى
 فَمِنْ عَصَا دَاعَى الْهَوَى فَقَسَا وَكَانَ جِلْدًا مِنَ الصِّفَا خَشِنًا
 فَإِنِّي وَالْعَفَافُ مِنْ شِيَمَى آبَى الدُّنْيَا وَأَعَشَقُ الْحَسَنًا
 طَوْرًا مَنِيْبٌ وَتَارَةً غَزَلٌ أَبْكِي الْخَطَايَا وَأَنْدُبُ الدَّمَنَا^(٣)
 إِذَا اعْتَرَتْ خَشْيَةٌ شَكَا فَبْكِي أَوْ انْتَحَت رَاحَةُ دَنَا فَجَنَى
 كَأَنِّي غَصَنٌ بَانَةٌ خَضَلٌ تَثْنِيهِ رِيحُ الصَّبَا هُنَا وَهُنَا^(٤)

أشعار متفرقة :

قال ابن هاني الأندلسي يصف أيام الربيع :

أَلَوْلَوْ دَمْعُ هَذَا الْغَيْثِ أَمْ نَقَطُ . مَا كَانَ أَحْسَنَهُ لَوْ كَانَ يُلْتَقَطُ .^(٥)
 أَهْدَى الرَّبِيعُ إِلَيْنَا رَوْضَةً أَنْفَاً . كَمَا تَنْفَسُ عَنْ كَافُورِهِ السَّفَطُ .
 غَمَائِمٌ فِي نَوَاحِي الْجَوِّ عَالِقَةٌ . حُفْلٌ تَحْدَرُ مِنْهَا وَابِلٌ مَبِيطُ .^(٦)

(١) الجلد : يسكون اللام : القوى الشديد . فتح اللام فيه للضرورة .

(٢) السن : الطريقة .

(٣) المنيب : من أناب إلى الله : رجع إليه وثاب .

(٤) الخضل : الرطب الندى .

(٥) الروضة الأنف : الجديدة التي لم يرها أحد . السفط : السلة أو وعاء يحفظ فيه النساء

الطيب .

(٦) وابل مبيط : شديد متدارك .

بين السحاب وبين الريح ملحمةٌ معامعٌ وظبى في الجو تختلط^(١)
 كأنه ساخطٌ يرضى على عجلٍ فما يدوم رضى منه ولا سخطٌ
 كأن تهتانا في كل ناحيةٍ مدٌ من البحر يعلو ثم ينهبط
 وللجديدين من طولٍ ومن قصرٍ حبلان منقبضٌ عنا ومنبسط^(٢)
 والأرض تبسط منها في الشرى ورهاً كما تنشر في حافات البسط
 والريح تبعث أنفاساً معطرةً مثل العبير بماء الورد مختلط

في هذا الوصف يعتمد ابن هاني ، على عادته ، إلى طرافة التشبيهات ويقدم لنا صورة حية للطبيعة بما فيها من عوارض الغيث ومعركة السحاب والريح ، وشعره في وصف الطبيعة لا يجعل منه شاعراً فذاً في هذا الغرض لأن عبقريته تبدو في الأغراض التقليدية كالمذبح والوصف والحكمة . وهو في جميع هذه الأغراض يبحث عن المعاني التي تساعد على تصوير ما يريد من الأخيصة في أسلوب يعتمد المبالغة والصنعة والكلمات الطنانة .

قال بعض الأندلسيين يصف بركة عليها عدة فوارات :

غَضِبَتْ مجاريها فأظهر غيظها ما في حشاها من خفيٍّ مُضْمَرٍ
 وكأن نبع الماء من جنباتها والعين تنظر منه أحسنَ منظرٍ
 قُضِبُ من البلور أثمر فرعها لما انتهت باللؤلؤ المتحدر

(١) تختلط : تسل وتجرد من أعمادها ، والظبي جمع ظبة وهي طرف السيف .

(٢) يريد أن الليل والنهار يطول أحدهما فيقصر الآخر كأنهما حبلان أحدهما منقبض والآخر منبسط .

قال ابن صارة الأندلسي يصف ماء بالركة والصفاء :

والنهر قد رَقَّتْ غِلَالُهُ خَصْرَهُ وعليه من صَبَغِ الْأَصِيلِ طِرَازِ
تتفرق الأمواج فيه كأنها عُكْنُ الْخُصُورِ تَهْزُهَا الْأَعْجَازِ

قال بعض أدباء الأندلس :

والنهرُ مكسوٌ غِلَالَةٌ فضةٍ فإذا جرى سيلاً فتوب نُضَارِ
وإذا استقام رأيت صفحةً مُنْصِلِ وإذا استدار رأيت عطفَ سوارِ

قال أبو القاسم بن العطار أحد أدباء إشبيلية يصف نهراً :

عبرنا سماءَ النهرِ والجو مُشْرِقُ وليس لنا إلا الحَبَابَ نَجُومُ
وقد أَلْبَسَتْهُ الْأَيْكُ بُرْدَ ظِلَالِهَا وللشمس في تلك البرود رُقُومُ

وله :

لله بهجةٌ مَنْزِهِ ضَرَبَتْ به فوقَ الْغَدِيرِ رُواقِهَا الْأَنْسَامُ
فمع الْأَصِيلِ النهرُ درعٌ سابغ ومع الضحى يلتاحُ منه حُسامُ

وله :

ما كَالْعَشِيَّةِ فِي رُوءِ جَمَالِهَا وبلوغِ نَفْسِي مِنْتَهَى آمَالِهَا
ما شَتَّتْ شَمْسُ الْأَرْضِ مَشْرِقُهُ السَّنَى

وَالشَّمْسُ قَدْ شَدَّتْ مَطْيَ رَحَالِهَا
فِي حَيْثُ تَنْسَابُ الْمِيَاهُ أَرَاقِمًا وَتَعِيرُكَ الْأَفْيَاءُ بُرْدَ ظِلَالِهَا

وله :

لله حُسْنُ حَديقَةٍ بَسَطَتْ لَنَا منها النفوسَ سِوَالفِ وَمَعاطِفُ
تَخْتالُ فِي حُلُلِ الرِّبيعِ وَحَلِيهِ ومن الرِّبيعِ قلائدُ وَمِطارِفُ
قال الأديب أبو عمر أحمد بن فرح الحياتي :

للروض حُسْنٌ فَقِفْ عَلَيْهِ واصرف عِنانَ الهوى إِلَيْهِ
أما ترى نرجساً نَضِيراً يرنو إِلَيْهِ بِمَقْلَتِيهِ

قال الأديب الأسعد بن بليطة :

لو كنتَ شَاهِدَنا عَشِيَةَ أَمْسِنَا وَالْمُزْنَ يَبْكِينَا بَعِينُ مَذْنَبِ
وَالشَّمْسُ قَدْ مَدَّتْ أَدِيمَ شِعَاعِهَا فِي الْأَرْضِ تَجَنَحَ غَيْرَ أَنْ لَمْ تَغْرِبْ

قال الحاجب ذو الرياستين أبو مروان عبد الملك بن رزين :

وروضٍ كَسَاهُ الطَّلُّ وَشَيْئاً مَجْدِداً فَأَضْحَى مَقِيماً لِلنَّفُوسِ وَمُقْعِداً
إِذَا صَافَحَتْهُ الرِّيحُ خِلَتْ غَصُونَهُ رَوَاقِصٌ فِي خُضْرٍ مِنَ الْعَصْفِ مُيِّداً
إِذَا مَا انْسَكَابَ الْمَاءِ عَايَنْتَ خِلْتَهُ وَقَدْ كَسَرَتْهُ رَاحَةُ الرِّيحِ مِبْرِداً
وَإِنْ سَكَنْتَ عَنْهُ حَسِبْتَ صَفَاءَهُ حُسَاماً صَقِيلاً صَافِىَ الْمُتَنِّ جُرْداً
وَعَنَّتْ بِهِ وَرُقُ الْحَمَائِمِ بَيْنَا غَنَاءٌ يُنْسِيكَ الْغَرِيضَ وَمَعْبِداً
فَلَا تَجْفُونَ الدَّهْرَ مَا دَامَ مُسْعِداً وَمُدٌّ إِلَى مَا قَدْ حَبَاكَ بِهِ يداً
وَأَخُذَهَا مُدَاماً مِنْ غَزَالٍ كَأَنَّهُ إِذَا مَا سَقَى، بِدَرٍّ تَحْمَلُ قَرَقَداً

قال علي بن أحمد أحد شعراء بلنسية :

قُمْ فاسقني والرياضُ لابسةٌ وشياً من النور حاكه القطرُ
والشمسُ قد عصفت غلائلها والأرضُ تندى ثيابها الخضِرُ
في مجلسٍ كالسماءِ لاح به من وجهٍ من قد هويته بدرُ
والنهرُ مثلُ المجرِّ حفَّ به من الندى كواكبُ زهرُ

قال سعيد بن محمد بن العاص المرواني :

والبدر في جو السماء قد انطوى طرفاه حتى عاد مثل الزورقِ
فتراه من تحت المحاق كأنه غرق الكثير وبعضه لم يغرقِ

قال عمر بن يوسف الحنطى :

أوميضُ برقٍ أم سيفٌ تبرقُ في عارضٍ أكنافه تتألقُ
دعاه إذا ارتدت إليك وجوهها أضحت وجوه الأرض منها تشرقُ
ترمى بأجفان الوميض كما انثنت أجفان عاشقةٍ إلى من يعشقُ

قال عثمان بن إبراهيم بن النضر :

ألا يا حمامَ الأيك مالكَ باكياً وغصنك نضرٌ والجَنابُ مريعُ
تغنَّ ولا تنشجِ فالفك حاضِرُ قريبٌ وإلني غائبٌ وشسوعُ
بكيتُ بلا دمع وترفضُ مُقلتي شآبيبَ منها في المصيف ربيعُ
وقلبك خلَّو من تباريح لوعتي وقلبي بلوعاتِ الفراق صريعُ

قال أحمد بن محمد بن عبد ربه :

ويحتاج قلبي كلما كان ساكناً دعاء حمام لم يبت بوكون
وإن ارتياحي من بكاء حمامة كذي شجن داويته بشجون
كأن حمام الأيك لما تجاوبت حزين بكى من رحمة لحزين

قال ابن وهبون من شعراء شرق الأندلس يصف النيلوفر وهو ضرب من الرياحين ينبت في المياه الراكدة :

وبركة تزهو بنيلوفر نسيمه يشبه روح الحبيب
حتى إذا الليل دنا وقته ومالت الشمس لعين المغيب
أطبق جفنيه على ألفه وغاص في الماء حذار الرقيب

قال ابن سهل الأشبيلي في جمال الطبيعة :

الأرض قد لبست رداءً أخضرا والطل ينثر في ربها جوهرا
هاجت ، فخلت الزهر كافوراً بها وحسبت فيها الترب مسكاً أذفرا
وكان سوسنها بصافح وردها ثغر يقبل منه خذاً أحمر
والنهر ما بين الرياض تخاله سيفاً تعلق في نجاد أخضرا
وجرت بصفحتها الربا فحسبتها كفاً ينمق في الصحيفة أسطرا
وكانه إذ لاح ناصع فضة جعلته كف الشمس تبراً أصفرا
والطير قد قامت به خطباؤه لم تتخذ إلا الأراكة منبرا

وقال ابن سهل يصف مشهد الأصيل :

انظر إلى لون الأصيل كأنه لا شك لون مودع لفراق
والشمس تنظر نحوه مصفرة قد خمشت خدًا من الإشفاق
لاقت بحمرتها الخليج فألّفا خجل الصبا ومدامع العشاق
سقطت أوان غروبها محمرة كالخمر خرت من أنامل ساق